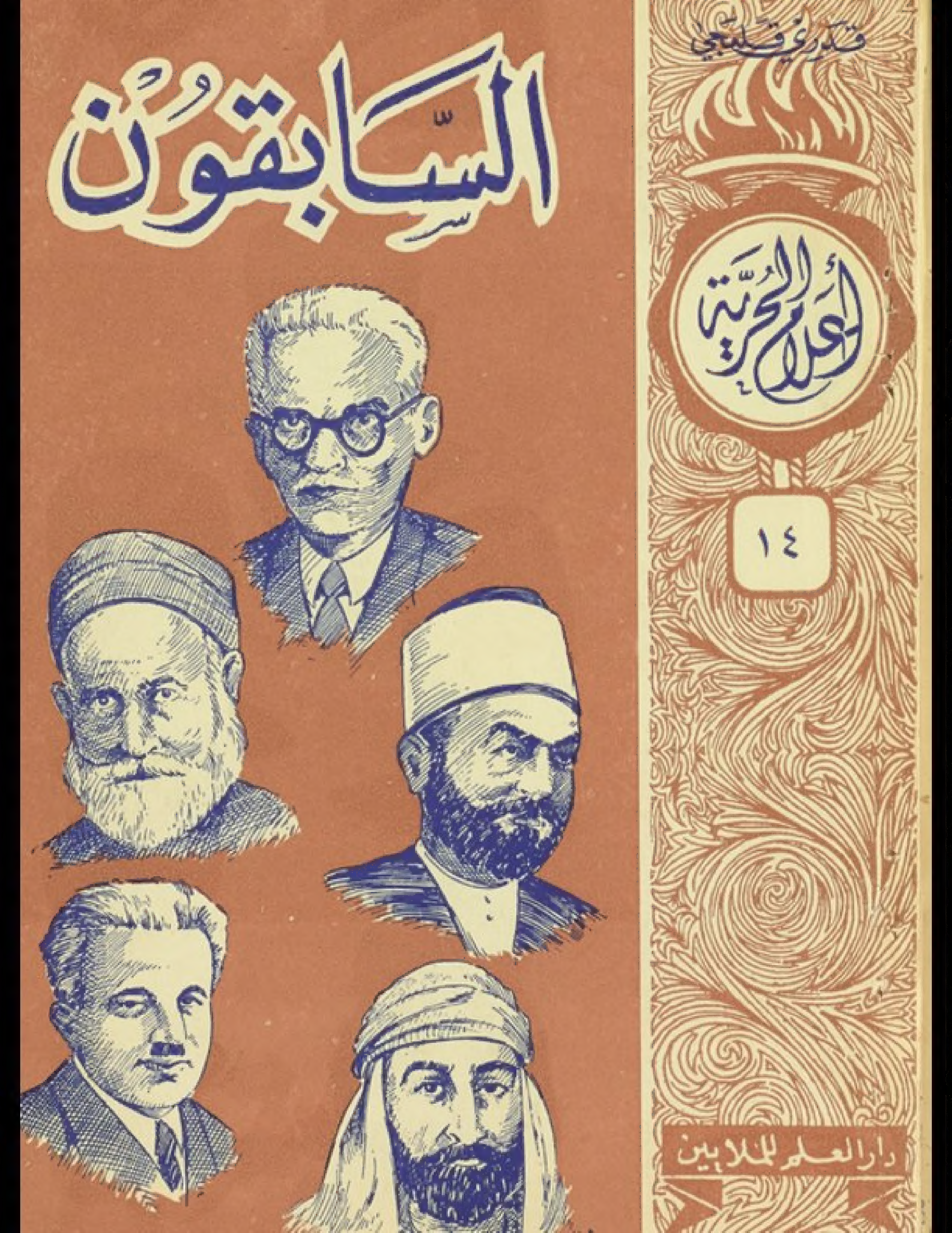







قدري قلعجي
السابقون
أعلام الحرية
١٤
دار العلم للملايين



قدري قلعجي

السابقون

عبد الرحمن الكواكبي
طاهر الجزائري
عبد الحميد الزهراوي
أمين الريحاني
عمر فاخوري

أعلام الحرية

١٤

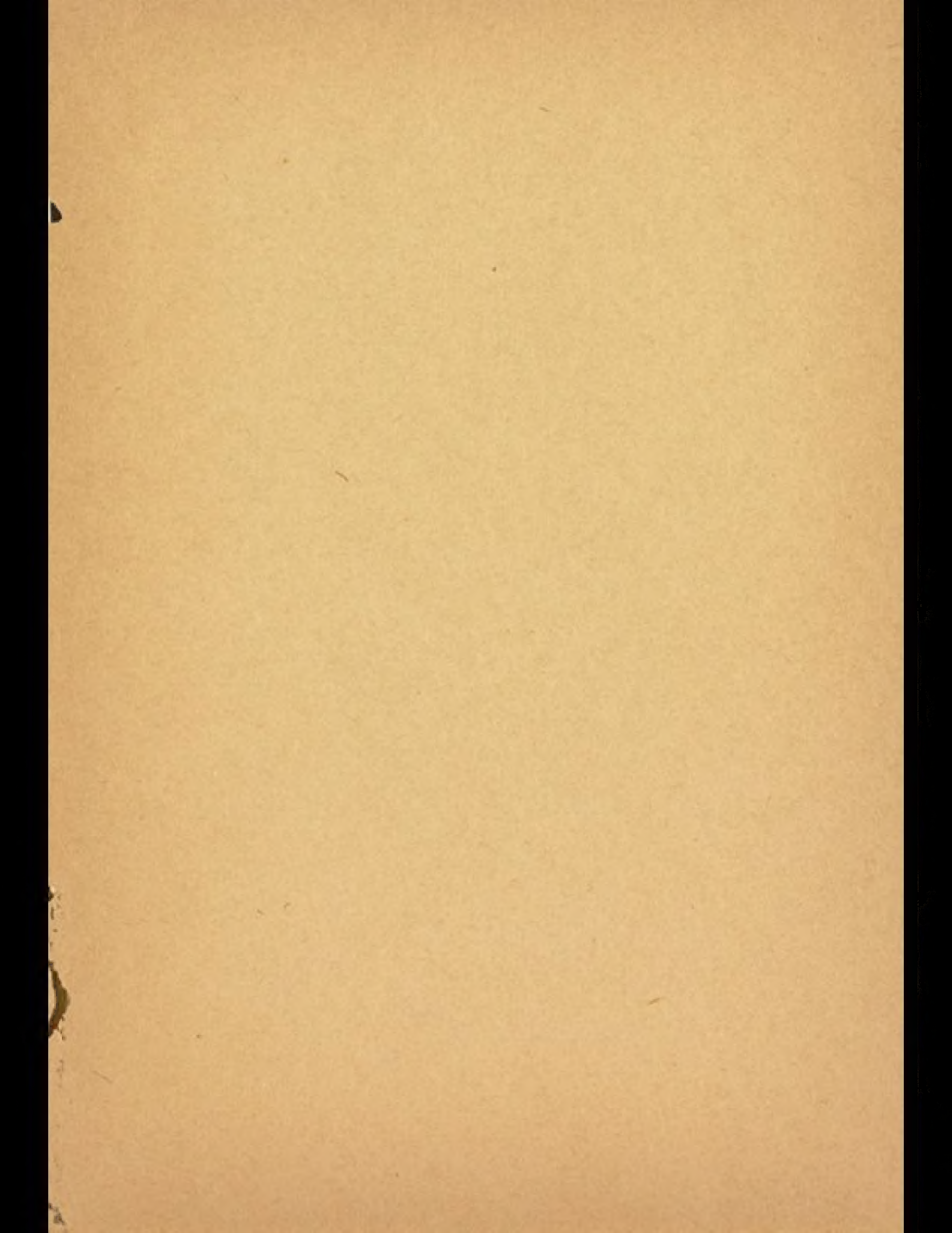
دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، تشرين الثاني ١٩٥٤

عبد الرحمن الكواكبي

صراعٌ مع الاستبداد



كان لهب المصباح يرقص على عزيف الريح ، وينشر ظلاله الشاحبة في الغرفة الساكنة ، فتتعانق كالاشباح وتترامى على الجدران العارية ..

وثمة رجل كان يجلس على مقربة من المصباح ، وقد بدا لشدة ذهوله كأنه احد تلك الاشباح التي ينشق عنها ظلام الليل ..

والليل ثقيل ، بطيء الخطو ، يطبق على صدر ذلك الرجل الساهر ، وقد رقدت المدينة وهجع من في البيت ، فهو يتململ قلقاً حائراً مضطرباً ، ينظر حيناً الى اولاده في مضاجعهم ، وقد خيل اليه انه قد تناهى الى سمعه انين خافت ، ثم يعود ببصره الى المصباح فيطيل التأمل فيه وكأنه يرى في حشرجته وزوال فتيله زوال دولة وحشرجة عصر ..

انه واحد من ملايين العرب الذين كانوا يعانون نير الاستبداد العثماني ، والذين استيقظوا من سباتهم العميق واخذوا يعملون على استعادة مكانهم في التاريخ ..

وكان من ابرز مظاهر هذه اليقظة ظهور هـذا الرجل بعينه ، في مدينة حلب ، بفكره المتقد وشعوره الزاخر ، يدعو قومه الى النهوض ، ويحمل امامهم مشعـل التحرر من كل قيد ونير ...

لقد كانت حياته صراعاً مع الاستبداد ...

وكان ادبه صرخة في وجه الاستبداد ... وكان الحلم الذي ملأ نفسه واخذ ينبض في دمـــه وروحه ، التحرر من الاستبداد ...

فهو رمز العربي الابي والمفكر الثائر في مطلع النهضة العربية الحديثة ..

وينهض الرجل متثاقلا ، ويلتوي بالم .. كأن يـــدا غليظة تقبض على عنقه ، ويتمـــتم وهو يرنو الى اولاده باشفاق ، اواه ... ما اقسى يد الاستبداد ..

وتتراءى له صور حياته ، في ظل هذه اليد الباطشة ، قاتمة كئيبة كأنها مغموسة في الهم والشقاء .

لقد ولد سنة ١٨٤٨ من ابوين كريمين واسرتين فاضلتين وسمي عبد الرحمن ..

كان ابوه الشيخ احمد الكواكبي امين الفتوى في حلب ، وكانت امه عفيفة بنت مسعود النقيب ، امـــين الفتوى في انطاكية ..

وفي سن الخامسة فقد الطفل امه فكفلته خالته صفية ،

وكانت من شهيرات النساء في مدينتها انطـاكية ، فنشأ تحت جناح رحمتها اقوى ما يكون عوداً واشد ما يكون ذكاء ...

وتنقل الطفل بين انطاكية وحلب غير مرة ، وتلقى دروسه فيها على ايدي اساتذة متعددين منهم ابوه الشيخ احمد الذي كان استاذاً في المدرسة الكواكبية ...

فلما بلغ سن الشباب كان قد اتقن العربية والتركية والفارسية ، واصاب حظاً من العلوم الدينية ، وتلقى بعض العلوم العصرية .. ولكن ثقافته الحقيقية انما استمدها من مطالعته الشخصية للكتب والمجلات العلمية والاجتماعية ..

وعلى الرغم من انه لم ينظم الشعر فقد اشتهر في شبابه بحفظ الوف الابيات المختارة وكان يدون في دفاتره القصائد التي يعجب بها مصنفاً اياها بحسب موضوعاتها .

وتوفي الشيخ احمد الكواكبي وابنه عبـد الرحمن في ميعة الشباب ، فاضطر الى العمل لكسب معيشته في تلك السن المبكرة ، وبدأ منذ ذلك الحين مرحلة من النضال الجاهد تنقل خلالها ، في مدة غير قليلة ، في المناصب الادارية والعلمية . وقام ببعض المشاريع العمرانية والصناعية الهامة ، واصدر جريدة « الشهباء » التي كانت اول جريدة سياسية خاصة صدرت في مدينة حلب ، ولكن لم يظهر منهـا سوى ١٥ عدداً ثم اغلقتها السلطة واضطهدت صاحبها ...

وكان عبد الرحمن الكواكبي خلال هذه المرحلة كلها ، على خلاف شديد مع السلطة الحاكمة ، فهو يأخذ على الحكام استبدادهم وفسادهم ، وهم يأخذون عليه حريته وجرأته ويسمونها تمردا وتهورا ...

وفي زمن الوالي جميل باشا عزل عبد الرحمن الكواكبي من عمله والقي في السجن مع عدة اشخاص من وجوه حلب بتهمة التحريض على اغتيال الوالي ثم برىء وافرج عنه ...

واشتد الخلاف بين عبد الرحمن الكواكبي والسلطة الحاكمة في عهد الوالي عارف باشا ، فاتهمه الوالي بتأليف جمعية تناوىء الدولة وتسعى لقلب الحكم ، فالقى القبض عليه وفتش منزله ومكتبه ، ودست بين الاوراق المصادرة منها وثائق مزورة توهم بأنه كان يسعى في تسليم حلب لدولة اجنبية . فقرر القضاء محاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، ولكن ما زال الكواكبي وانصاره يناضلون حتى تم لهم نقل مكان محاكمته الى بيروت فحوكم هناك وقضت المحكمة ببراءته من الجرم الذي نسب اليه ...

وانقضت بعد ذلك عشر سنوات بلغ الثائر معها سن الخمسين وهو لا يزال منطوياً على ذلك العزم المضطرم الذي يلتهب في صدره ابدا ، والذي كاد يحرق كل جوارحه لشدة ما يلقى من كبت ويعاني من اضطهاد .

وها هو بعد ذلك الدهر الطويل ، يعين نائباً شرعياً

في قضاء راشيا ، ويستعد لمبارحة حلب الى مقر عمله ، ليجبر على تمضية ما بقي من عمره في العمل الرتيب . والعيش الذليل ...

ولكن تلك الليلة كان مقدرا لها ان تكون فاصلة في حياته ...

لقد اعلن لاهله وصحبه أنه مبارح حلب صبيحة اليوم التالي ، ثم لاذ بهذه الغرفة العارية ليساهر المصباح الشاحب ويتخذ على ضوئه المتراقص قرار خطيرا ...

وكان عليه ان يكتم في الصباح ، قراره هذا حتى على اقرب المقربين منه فيودع اطفاله ويودع معهم قلبه وحبه ، دون ان يذرفوا دمعة الوداع الاخير ...

وجاشت الدموع في صدر الشيخ الثائر ، ولكنه تجلد واخذ نفسه بالصلابة التي اشتهر بها .

وتمتم وهو يغادر حلب ، ورباه ... هل الدنيا اضيق من ان تتسع للقيا القلوب البريئة والنفوس الطاهرة ؟ ...

وكان الجميع يحسبون انه شاخص الى راشيا . والحق انه كان يرحل الى مصر ، ولم يرافقه في هذه الرحلة سوى كاظم اكبر اولاده ... وشدّ ما كانت دهشة الشاب حين شاهد اباه يغير طريقه ويمضي الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة ، متستراً متخفياً ...

استقبل عبد الرحمن الكواكبي في مصرَ استقبال المصلح الملهم والمؤمن الصادق ، فعكف على تبليغ رسالتـــه في

الحرية والثورة ، وسرعان ما اصدر كتابيه « طبـــائع الاستبداد » و « ام القرى » ...

وقد قال في مقدمة « طبائع الاستبداد » : ومصارع الاستبداد ، منها ما درسته . ومنها ما اقتبسته ، غـــير قاصد بها ظالماً بعينه ، ولا حكومة مخصصة ، انما اردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين ، عسى ان يعرف الشرقيون انهم هم المتسببون لما هم فيه ، فلا يعتبون على الاغيار ، ولا على الاقدار ... ثم اضفت اليهـــا بعض زيادات ، وحولتها الى هيئة هذا الكتاب .

وفي هذا الكتاب الذي يعد ظهوره بدء تطور جديد في التفكير الاجتماعي في البلاد العربية ، يعرّف الكواكبي الاستبداد بأنه « صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب ». ويقول ان الحكومات انما تميل الى الاستبداد بطبعها ولا يصدها عنه الا قوة الرأي العام من مفكرين يحاسبونها على حسابها حساباً عسيراً . ثم يصف المستبدّ وعدوانه على الحق والحرية ، وكراهيته للعلوم التي تنير الدنيا وتثير النفوس على الظلم ، فهو يرى ان العلم قبسة من نور الله ، وقـد خلق الله النـور كشافاً مبصراً ولاداً للحرارة والقـــوة وجعل العلم مثله وضاحاً للنور فضاحاً للشر يولد في النفوس حرارة وفي القلوب شهامة ...

ويرى الكواكبي ان الاستبـداد في السياسة ناشيء في

الاصل عن الاستبداد في الدين ، فبعض الاديان ترهب الناس وتخيفهم من قوة مجهولة ، وتهددهم بعذاب ترتعد له فرائصهم ، ثم تدعوهم الى الالتجاء لرجال الدين يتذللون لهم ويطلبون الرحمة والمغفرة على ايديهم ، والمستبدون يتبعون هذه الطريقة نفسها فهم يرهبون الناس ويذلونهم حتى لا يجدوا سبيلاً للخلاص من نقمتهم الا التزلف لهم ...

ورأى الكواكبي ان الاسلام في جوهره لا ينطبق عليه هذا القول ، ولكن دخل عليه من الفساد ما دخل على غيره . فتفرقت كلمة المسلمين وانقسموا شيعاً .. فالاسلام جاء محكماً لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديموقراطية والارستوقراطية .

ويغرق الكواكبي في تقديس الحرية حتى يقول ان الحرص عليها اقوى واوجب من الحرص على الحياة ، وان الموت الكريم احب واشرف من حياة الذل .

ويجد صلة وثيقة بين الاستبداد السياسي والحالة الاقتصادية ، وهو في هذا الموضوع يميل الى الاشتراكية ويطالب برفع مستوى الشعب وتحديد الملكية .

ولم يترك المصلح ناحية من نواحي الحياة الا وبين اثرها في الاستبداد واثر الاستبداد فيها ، فالاستبداد يفقد الثبات في الخلق ، ويجعل من الفضائل رذائل ومن الرذائل فضائل ، ويعيش الانسان في ظله خاملاً حائراً ضائع القصد .. وهو على الاجمال يمنع التطور والرقي .

وقد كتب الكواكبي هـذه الفصول ببيان رائـع وحماسة عظيمة لا تجد مثيلاً لها الا في صرخات جمـال الدين الافغاني في وجه الاستعمار .

لقد كان كتاب « طبائع الاستبداد » نتاجاً رفيعـاً من ثمر الفكر الناقد الحر ، بينما كان كتاب « ام القرى » ثمرة يانعة من ثمار الفكر الباحث المنقب . وقد تخيـل فيه مؤلفه ان جمعية من المسلمين قد عقدت في مكة للتداول في احوال بلادهم واسباب تأخرهم ، وحضرها ممثلون عـن جميع الاقطار الاسلامية ، واسندت رئاسة الجمعيـة للعضو المكي والسكرتارية للسيد الفراتي وهو الكواكبي نفسه .

وقد رأى اولئك الباحثون ان فتور المسلمين يعود الى اسباب مختلفة . منها اسباب دينية واهمها عقيدة الجبر ونشد ما يدعو الى التزهيد في الدنيا ، وترك السعي والعمل ، واختلاف المسلمين فرقاً وشيعاً ، واضاعة سماحة الدين وتشديد الفقهاء المتأخرين ، وادخالهم في تعاليمه الخرافات والاوهام ، وعدم المطابقة بين القول والعمل في الدين ، وتهوين غلاة الصوفية شأن الدين وجعله لهواً ولعباً . والتوسع في تأويل النصوص ، والتحايل على التحرر من الواجبات ، وايهـام الدجالين ان في الدين اموراً سرية ، واعتقاد منافاة العلوم الحكيمة والعقلية للدين ، وتطرق الشرك الى عقيدة التوحيد ، وتهاون العلماء في تأييدها ، والغفلة عـن حكمة الجماعـة والجمعة الخ ...

وهناك أسباب سياسية اهمها السياسة المجردة من المسؤولية ، وحرمان الامة من القول والعمل وفقدانها الأمن والأمل ، وفقد العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الامة ، وميل الأمراء للعلماء المدالين واعتبار العلم صدقة يمنّ بها الأمراء على الخاصة ، وابعادهم للناصحين وتقريبهم المتملقين واستبداد الأمراء وانغماسهم في الترف ودواعي الشهوات .

وثمة اسباب اخلاقية ايضاً منها الاستغراق في الجهـــل والارتياح اليه واستيلاء اليأس على النفوس ، والاخلاد في الخمول ، وفساد التعليم ، وفساد النظام المالي واهمال طلب الحقوق العامة جنباً ، وتفضيل الوظائف على الصنائع والتباعد عن المداولات في الشؤون العامة .

وقد اتخذ المجتمعون المقررات اللازمة لمعالجة هذه العلل ، واقترحوا انشاء جمعية دائمة تعنى باصلاح المسلمين وتشرف على تنفيذ برنامجها في الاصلاح .

وعلى الرغم من ان ابحاث هذا الكتاب اسلامية الطابع فقد كانت تنمّ عن الشعور بالوعي القومي ولكنه كان شعوراً بدائياً في حاجة الى التركز والتبلور ، وقد دل هـــذا الشعور على نفسه بقوة وصراحة حين دعا الكاتب في آخر الكتاب لارجاع الخلافة الى العرب فقال : فاذا عـــلم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لا يتحذرون من الخلافة العربية بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصالح النصرانية

وصالح الانسانية ان يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة السطوة مربوطة بالشورى على النسق الذي قرأته عليك .

وانقضت فترة من الزمن كان عبد الرحمن الكواكبي يكتب خلالها ويخطب ويهدي الى سبل الحق والرشاد ، ثم خرج الى سياحة طويلة في سواحل افريقيا الشرقية والجنوبية ، ودخل منها الى الحبشة وسلطنة هرر والصومال ، وانتقل الى سواحل آسيا الجنوبية ، ودخل من سواحل المحيط الهندي الى بلاد شبه الجزيرة العربية فاجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل ودرس احوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، وارتحل من هناك الى كراتشي فبومباي ومنها الى جاوه وسواحل الصين الجنوبية ...

ثم عاد الى مسقط فالتقى بوكيل ايطاليا السياسي السنيور صولا وكان صديقاً له في حلب ، فأوصى به سفينة حربية ايطالية راسية هناك فحملته وطافت به سواحل بلاد العرب الشرقية في البحر الأحمر وسواحل افريقيا حتى برنديزي في ايطاليا .

ومن هناك عاد الكواكبي الى مصر ، وكانت غايته من هذه الرحلة الكبرى ان يرى ويصف ويقص على امته من انبائها وأنباء الأمم الأخرى ما يساعدها على النهوض من كبوتها ، فحال دون جمعه مذكراته ونشرها على

الناس موته المفاجيء في ظروف مريبة .

كان ذلك في الرابع عشر من حزيران ١٩٠٢ وكان عبد الرحمن الكواكبي جالساً في مقهى يلدز قرب حديقة الازبكية ، كعادته بعد العشاء في صحبة عدد من كبار الادباء ورفقة ابنه الكبير كاظم .. وقد طلب القهوة المرة فجيء اليه بها في ركوة صغيرة ، ليشربها متمهلاً حسب عادته المعروفة في المقهى ... ولكنه ما كاد يحتسيها حتى احس بالم شديد في امعائه ، فنهض لفوره وذهب الى منزله مع ولده كاظم ، وما كاد يبلغه حتى بدأ يستفرغ ما في احشائه وهو يشكو من الم الفظيع ...

وذهب كاظم الكواكبي لاستدعاء الطبيب . ولما عاد وجد اباه قد مات .. وشاع النبأ الاليم في القاهرة ، وتوافد اصحابه لتشييعه الى مقبرة باب الوزير في سفح جبل المقطم حيث دفن وبقي جثمانه هناك اربعين سنة . ثم نقل الى مقبرة في شارع العفيفي خاصة ببعض مشاهير الرجال ، ونقش على قبره بيتان لحافظ ابراهيم قال فيهما :

هنا رجل الدنيا ، هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا امّ الكتاب وسلموا
عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

ولم يتح لذلك البطل الذي مات ميتة المهاجر الشهيد

ان يرقد الى جانب احبائه في ثرى الشهـــداء كما لم يتح لاولاده ان يرقدوا الى جانب الرجـــل الذي استقوا من فيضه كرم الخلق ونبل العزة وصلابة الجهاد .

لقد كانت الدنيا اضيق من ان تتسع لمقيا القـــلوب البريئة والنفوس الطاهرة ، على صعيد الحب والوفاء . .

طاهر الجزائري
محرر العقل



كان الشيخ طاهر الجزائري داعية اصلاح ومثقف عقول ومهذب اخلاق ، لمع اسمه بدمشق في اواخر القرن التاسع عشر واشتهر فيها بسعة الاطلاع وقوة الحجة ومضاء العزيمة . وكان اثره المباشر في معاصريه اعظم من الاثر الادبي الذي خلفه ، ولعل ابرز مزاياه التفاؤل الذي عرف به في عهد مظلم لا يوحي لضعاف القلوب الا بالقنوط . فقد قيل انه لم يجالسه حزين الا وسري عنه او يائس الا وأحيا في قلبه الامل حتى لقبه اصحابه بمحيي الهم ومبدد الهموم .

ولد بدمشق في منتصف القرن التاسع عشر ، وكان ابوه الشيخ صالح قد اتى اليها مهاجرا من الجزائر منذ بضع سنوات وتولى قضاء المالكية فيها فأنشأه نشأة علمية . وكان الفتى قوي الحافظة شديد الذكاء واسع الافـــق ، فسرعان ما اتقن اللغات العربية والفارسية والتركية وتعلم مبادىء العلوم واصول الفقه ، وشغف بالاطلاع على مختلف المعارف البشرية من دينية ومدنية ..

وما كاد يبلغ سن الشباب حتى تولى التعليم في المدرسة

الظاهرية ، ثم عين مفتشاً عاماً في المدارس الاميرية ، فأنشأ الكثير منها وساعد على تقدمها وتطورها ، وتعهد الأساتذة والتلامذة بالنصح والارشاد ، واصلح طرق التعليم التي كانت على غاية من الانحطاط ، ووضع الكتب المدرسية باسلوب حديث قريب المأخذ واضح المنهج خال من الحشو والتعقيد ، فسهل تناولها على اذهان الطلاب ، وادى خدمة كبرى لنهضة التعليم في سوريا .

وقد نشأ الشيخ طاهر في بيئة محافظة على كل قديم متنكرة لكل جديد ، فخالف الجمهور في كثير من معتقداته وتقاليده ، ودعا الى التجديد ونبذ العادات الفاسدة والخرافات الشائعة . وكان يكره كل من يقول بغير علم . قال مرة : ان فلانا برده على الماديين وهو لا يحسن العلوم المادية قد فتح علينا ابواباً يصعب حلها .

كان قلبه مع كل فريق من اهل الخير ...

لم يكن على احد المذاهب الاربعة بل كان يأخذ من كل مذهب ما يراه متفقاً مع العقل والمصلحة العامة .

كان سنياً ولكنه لا يتحرج من العمل بما يعجبه ويتفق مع نهجه لدى علماء الشيعة .

وكان متديناً ، غير انه لا يتحرج من صحبة ارباب الفرق حتى الملحدين منهم لمعرفة آرائهم ومناقشتهم بالروية والحكمة . كان بينه وبين المطران يوسف داود السرياني صداقة

وطيدة ، بل اخوة وثيقة العرى ، يحرص كل منهما على صحبة رفيقه ويثني عليه ويصرح بانه قد افاد منه كثيراً .

وكان الشيخ طاهر راضياً بنهجه هذا ، يرى فيه الخير والبر ، ويقول : الحمد لله ، لقد سالمنا كل الفرق .

ومن آثار الشيخ طاهر الباقية دار الكتب الظاهرية التي انشأها ليجمع شتات الكتب النفيسة ، المخطوطة والمطبوعة ، الموقوفة على طلاب العلوم . وكانت مبعثرة في مكتبات المدارس الدينية ، تعبث بها ايدي النهب والتلف ، فخشي ان تفقد باجمعها ويحرم الناس من فوائدها ، فضمها جميعاً في مكتبة واحدة .

وانتقد طاهر الجزائري الاسلوب الادبي السائد في عصره ، واخذ يرشد الناس الى نفائس الاعلاق من كتب المتقدمين وامهات اللغة العربية التي كانت كنزاً دفيناً قلّ من سمع بها او اطلع عليها فكان يبذل جهده لبعثها ونشرها .

وكذلك عرف اهمية التاريخ كمرآة للعصور الغابرة ومرقاة للاجيال الحاضرة . فعني باحياء التاريخ العربي وارشاد الطلاب الى دراسته وانعام النظر فيه ، والدلالة على كتبه المفيدة والسعي لطبعها كي يتخذ الخلف من تجارب السلف نبراساً يهتدي بانواره الى الطريق القويم .

وكان القلم وقفاً على طائفة معينة يتكسب افرادها به ويتبوأون المراكز العالية ويتقربون من الحكام والسلاطين ،

فكان يغيظهم ان يتلقى العلم من ينافسهم فيه ويزاحم على المنافع التي يحتكرونها باسمه ، وكانت هنالك فئة من الشيوخ الخرافيين المتطفلين على العلم والمتجرين بالدين . فكان طاهر الجزائري خصماً لاولئك وهؤلاء ، ينصح العلماء بان لا يقيموا بينهم وبين العامة حجاباً كثيفاً بل يعملوا على هدايتهم والانتفاع بهم واقناعهم بانهم اهل لتلقي العلم والنبوغ فيه .

وقد نشب الصراع على اشده بينه وبين الدجالين الذين يوهمون الناس انهم من العلماء ولا اثر للعلم عندهم الا بالشعار والدثار ، وهم الى ذلك مراءون منافقون يلبسون لكل دور لبوسه ، ويتذرعون بانواع الذرائع احتفاظاً بمراكزهم العالية وجاههم الكاذب ، ويحرفون احكام الدين ليوفقوا بينها وبين اهواء الظالمين .

ورأى الشيخ ان هؤلاء الدجالين اشد خطراً على الاسلام واكبر ضرراً على المسلمين من كل عدو ، لانهم يقاومون الاصلاح ويناهضون المصلحين بحجة الدفاع عن الدين الذي يطمسون نوره ويتاجرون به ، وكان يقول مع عبد الرحمن الكواكبي : لا شك ان افضل الجهاد في الله في هذا الزمان ، الحط من كرامة العلماء المنافقين عند العامة ، وتحويل وجهتهم لاحترام العلماء العاملين المخلصين .

ومن آرائه انــه يجب على العلماء ان يتعلموا بعض الصناعات ليستغنوا بها عن اعتاب الملوك وابواب الامراء والاغنياء ، صيانة لكرامتهم وحرصــاً على حريتهم ، ليتمكنوا من القيام بواجبهم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لقد فهم الشيخ طاهر الدين على حقيقته وذلك بمعرفة متن الشريعة والوقوف على طرق اسانيدها لتقيها مما ألصق بها من البدع والاهواء والخرافات التي لا تنطبق على علم ، ولا يقبلها عقل .

وقد جاهد في مقاومة هذه الآفات التي قوضت اركان الدول الاسلامية واخرت المسلمين عن موكب الحضــارة ، ودعا الى النهوض بالامة عن طريق العلم الصحيح المقترن بالتربية القومية ، لان العلم والخلق شطرا الحكمة ودعامتا النهضة لا غنى للامم باحدهما عن الآخر .

وكان اصحابه يلومونه على تلك الحملة الدائبة التي يهاجم بها تلك الفئة من رجال الدين ويقولون له ان هذا السلوك لا يفيد غير العداوة ، وانت تضرب في حديد بارد ، فيجيبهم ان العداوة في محلها اجدى من كسب المحبــة من غير وجهها ... ان معاداة الغشاشين لامرٌ يسرني وان محبتهــم لي تسوءني كثيراً .

وكان يقاوم الظلم ، ويكره الاستعمار ، وينتقد السياسة العثمانية ، ويرى ان سيطرة الاجنبي على بلاد العرب هي التي

اوقفت تطورها واخرتها عن مسايرة ركب الحضارة ، الا انه لم يكن قانطاً من التحرر او يائساً من الاصلاح ، وانما كانت ثقته قوية بمستقبل الامة العربية ، واستعدادها للنهوض من عثرتها ، متى اخذت باسباب العلم ، ونشأ ابناؤها على التربية القومية الواعية ، التي تقوي القلوب وتشحذ العزائم وتمزق عن العيون غشاء الاوهام .

وكان كثير التواضع مع الضعفاء ، ابياً على الحكام الظالمين ، صلباً في الحق لا يعرف التساهل فيه والتغاضي عنه وقلما كان يغشى مجالس الحكام واذا حضر مجلسهم تكلم بما يغيظهم او التزم الصمت .

لقد عاش في عصر تأله فيه السلاطين وقدسهم الناس واطاعوهم وخضعوا لهم بسبب العلماء المداجين الذين كانوا يلقنون العامة الذل والخضوع فبات من ينقدهم مارقاً خارجاً من طاعة الله .

في ذلك الزمن وقف طاهر الجزائري يندد بالحكام ، ويقاوم جور الولاة ، وينتقد سوء الادارة ويدعو الى الحرية والعدل والنظام ، فرأى صنائع المستبد وحملة نيره في هذه الدعوة الدائبة ما ينذر بفضح مساوئهم وقطع ارزاقهم واقصائهم عن المجتمع لانهم لا يستطيعون العيش إلا في ظل الحكومات الظالمة ورعاية الاستبداد والجهل .

ومن التهم التي كانوا يأخذونها عليه ويحاربونه بها ، المروق من العثمانية ، والخيانة الوطنية ، والعمل على فصل

البلاد السورية عن بقية المملكة . وقد توسل خصومه بذلك فالغوا منصبه في الحكومة تخوفاً من انتشار افكاره ، فأزداد نشاطه ، واخذ يعلن بصراحة ما كان يتحدث عنه بشيء من الحذر والحيطة ، ولم يقبل بعد ذلك اي منصب عرض عليه ليقينه بان الوظيفة في ظل الاستعمار قيد يمنع رجل الفكر من العمل بما يؤمن به من رفيع المثل .

كان الشيخ طاهر يرى ان الدولة العثمانية موشكة على الانهيار ، فيدعو العرب الى التأهب بالعلم والاخلاق والتجدد ، والتحفز لنيل استقلالهم ، وصون بلادهم من ان تبتلعها حيتان الاستعمار متى تقوضت دعائمها ، وتداعت عليها الامم لاكتساحها واقتسام بلادها .

وتنبه السوريون واخذوا يعملون على تحطيم قيودهم ، وكثرت جمعياتهم الادبية ، واحزابهم السرية حتى خشي السلطان عبد الحميد ثورة القطر السوري ، فعزل حسن رفيق باشا والي سوريا لغفلته عما يجري فيها وعهد بقيادة الفيلق الخامس الى المشير عبدالله باشا الشركسي فاخذ يضطهد احرار العرب ويداهم دورهم لعله يقع فيها على الخطط التي تدبر في الخفاء .

وكان طاهر الجزائري في مقدمة الاشخاص الذين دوهمت دورهم ، فاقتحموا منزله وهو غائب عن دمشق يتجول في انحاء القطر السوري ، فأدرك ان هذه البادرة ان هي الا انذار بخطر اكبر كالشرارة تكون اول النار ، فأظلم

الافق في عينه وبادر بالرحيل الى مصر وهي يومئذ قبلة المضطهدين وملجأ الاحرار .

غادر طاهر الجزائري سوريا مخلفاً فيها ثورة فكرية تسري تحت الرماد ، وسرعان ما وجـــدت هذه الثورة متنفساً لها في الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ يوم اعلن الدستور وتولى الحكم احرار الاتراك .

وبينما كان اكثر السوريين يرحبون بالانقلاب ، ويقيمون الحفلات والمهرجانات ابتهاجاً وفرحاً جاء من مصر رسول من قبل طاهر الجزائري يقول لمريديه ، انه ناقم على هذه الحال ، غير مطمئن لجمعية الاتحاد والترقي ، وانه لن يعود الى سوريا كما يطلبون منه ، لان الوضع فيها لم يختلف بالنسبة الى العرب ، وكل ما حدث انها انتقلت من استبداد الى استبداد .

وعجب الشباب الثائرون الذين لقنهم الشيخ طاهر الثورة على العهد الحميدي كيف لا يبتهج بسقوط عبد الحميد ، ولا يرحب بالاحرار الذين أسقطوه .. ولكـــن لم يمض ردح من الزمن ، حتى ظهرت نيات هـؤلاء الاحرار نحو العناصر غير التركية في المملكة العثمانية وفي مقدمتها العرب الذين كانوا يريدون تتريكهم واخماد كل نزعة من نزعات الحرية في صدورهم بالضغط والجور والأرهاب .

وحينئذ علم العرب ان الامـــر لم يختلف فعلاً بالنسبة اليهم ، وانه مهما تطورت الدولة التي تحكمهم ، واعتنقت

مبادىء الحرية ، فانهم لا يستطيعون ان يعيشوا احراراً إلا اذا انفصلوا عن تلك الدولة ، واحرزوا سيادتهم الوطنية وتمتعوا بنعمة الاستقلال .

وعلى اثر ذلك افترقت طريق احرار العرب عن طريق احرار الاتراك ، وبرزت اهدافهم القومية بوضوح . وجاء الشيخ طاهر الى دمشق ، قبيل الحرب العالمية الأولى ، فعمل على اثارة العواطف ، واستنهاض الهمم وبعث الشعور الوطني في نفوس اخوانه ومريديه ، وبشرهم بأن الدولة العثمانية ، قد باتت على شفا جرف هار وان نجمها على وشك الافول ، فلا بد من ان يتداعى بناؤها ويتحطم ركنها في اقرب وقت .

ثم غادر الشيخ دمشق عائداً الى ارض الكنانة ، فنجا بذلك من حبائل الاتحاديين وحبال المشانق التي نصبوها في سوريا لتكون ذكرى اليمة لتحررها من اضطهادهم وجورهم . ولو بقي الشيخ طاهر في سوريا لكان في طليعة شهدائها الابرار .

وازدادت نقمة الشيخ طاهر على الظالمين ، واشتدت كراهيته لهم حتى اوغلوا في سفك الدماء وتعذيب الابرياء ، ورفض ان يقبل التعزية بابن اخيه الشهيد سليم الجزائري ، وبقية الشهداء ، مريديه واصدقائه ، ما لم يثأر الله للمظلوم من الظالم .

ولم يبتهج بشيء مثل ابتهاجه بالثورة العربية ... وحين

وافت الانباء باندحار الجيش العثماني واحتلال الجيش العربي المدن السورية ، تنفس الشيخ الصعداء ورأى في ذلـــك تحقيقاً لامنية العرب الكبرى وتعزية حقيقية بابن اخيـــه وبقية الشهداء .

وكان لا يفتأ يفكر في المناضلين العرب ويـــدعو الى مؤازرتهم ويشاركهم مشاعرهم وآلامهم ... وقـــد بليت جبته ، فالح عليـــه احد اصدقائه ان يصلحها او يشتري غيرها ، فأجاب مستنكراً : انك تريدني على اقتناء جبة جديدة وقد شغلك هذا الامر عن كل امر آخر ، بيـــنما يموت الالوف من ابنــــاء وطنك كل يوم جوعاً وقتلاً وارهاقاً .

وكان الشيخ طاهر الجزائري قد اطمأن الى مـا احرز العرب من انتصار وما نعموا به من حرية ، فشعر بان رسالته قد انتهت وبأن اجله قد دنا ، فارتحل عائداً الى دمشق لتشهد المدينة العربية الخالدة موتـــه مثلما شهدت مولده ، ولتضم جثمانه بين ذراعي قاسيون ذلك الشيـــخ الآخر الذي يحنو عليها حنوّ الاب الحادب على وليـــده الغالي ..

كان ذلك في الخامس من كانون الثاني سنة ١٩٢٠ وقد بلغ الشيخ طاهر يومذاك سن السبعين .

عبد الحميد الزهراوي

بطولة الشهداء



كان صوته من اول الاصوات الحرة التي دعت العرب الى الثورة على الاستبداد العثماني ..

وكان قلمه من ابلغ الاقلام واجرأها في تصوير اهوال الاستبداد ، وتعداد مظالمه ، والحض على مقاومته بكل ما في الطبع الكريم من ميل الى السيادة والعزة . وكل ما في النفس الابية من تطلع الى الحرية والنور ..

وكانت جريدته « المنبر » لوناً فريداً في عالم الصحافة انشأها في مدينة حمص ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكان محررها وطابعها وموزعها والمنفق عليها ..

ومن حروف هذه الجريدة التي كانت تكتب بالخط وتطبع على الجلاتين وتوزع سراً او بواسطة البريد ، انبثق نور هاد وارتفعت ألسنة من لهب ، وتألفت قوة مادية ساهمت في تحطيم عرش الاستبداد والقضاء على المستبدين ..

وكان الطاغية عبد الحميد يرتجف حقداً وذعراً كلما شاهد عدداً جديداً منها ، او تلقى تقريراً سرياً يصف اقبال الشباب عليها ، والاثر العميق الذي تتركه في نفوس

الاحرار الثائرين ..

وبما اذكى حقد الطاغية ان ابحاث « المنبر » كانت تتناوله بالذات ، بما تعالجه من موضوعات تدور حول الامامة وشروطها ، وانتقاد الامام الجائر ، والدعوة الى مقاومة ظلمه وعمله ، والتنبيه الى ان خلعه واجب على المسلمين ..

ولكن الجريدة الثورية لم تستطع ان تعيش طويلاً في الخفاء .. فقد شددت السلطة الحصار عليها ، ووضعت المراقبين لمصادرتها من دور البريد ، وعاقبت بشدة كل من وجدت لديه نسخة منها . فاضطر عبد الحميد الزهراوي الى التوقف عن اصدارها ، ورحل الى الاستانة ليقوم بعمل تجاري ، فلم يتفق هذا العمل مع طبعه ، فتخلى عنه واخذ يقضي ايامه في دور الكتب مطالعاً كتب التاريخ والفقه ، حتى طلب منه طاهر بك صاحب جريدة (المحليات) ان يتولى تحرير جريدته فقبل هذه المهمة وشرع يكتب المقالات الجريئة الشائقة برغم الرقابة الشديدة المفروضة على الصحف .

الا انه ما لبث ان اعتقل مدة اربعة اشهر ، وارسل الى دمشق ليقيم فيها تحت المراقبة ، فانصرف الى المطالعة والتأليف ، فأصدر فيما اصدر من الفصول والرسائل ، رسالة في الفقه والتصوف انتقد فيها بعض الاعمال التي يقوم بها الشيوخ الخرافيون باسم الدين ، ودعا الى الاجتهاد في

حدود الشريعة السمحة فضج اولئك الشيوخ الجامدون ، واهاجوا العامة عليه ، زاعمين ان رسالته مخالفة للدين ، فثار الناس من غير روية ، وكادوا يفتكون به ، لولا ان اسرع الوالي ناظم باشا باحضاره الى مكتبه ، ودعا اولئك المحرضين الى مناقشته في موضوع رسالته ، طالباً منهم اثبات ما نسبوه اليه ، فلم تقم لهم حجة مقنعة ، وكانت حجته هي الدامغة ..

وحين استقط في ايدي اولئك الشيوخ الرجعيين ، طفقوا يوغرون صدر الوالي التركي على مواطنهم وزميلهم الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، ويروون له القصص المثيرة عن نشاطه السياسي وحديثه في المجالس العامة ، مما اضطره الى ارساله مخفوراً الى الآستانة فبقي مراقباً فيها مدة ستة اشهر ثم ارسل الى حمص وفرضت عليه الاقامة الجبرية فيها .

وضاق عبد الحميد الزهراوي بهذه القيود ، فهرب الى مصر عن طريق طرابلس الشام سنة ۱۹۰۰ وكان قد بلغ سن الثانية والثلاثين ، فساهم في تحرير « المؤيد » ثم تولى رئاسة تحرير جريدة « الجريدة » واستمر يكتب المقالات الوطنية الداعية الى التحرر حتى وقع الانقلاب العثماني واعلن الدستور ، فدعا اخوانه الى حمص ليكون نائباً عنهم في المجلس العثماني ، فلبى دعوتهم ورحل الى الآستانة ممثلاً لقومه في مجلسها فكان على رأس القائلين بالفكرة العربية

والمناضلين من اجل حقوق العرب ..

وكان الاتحاديون قبل استلامهم الحكم يبشرون بالمبادىء التقدمية ويدعون الى الحرية والمساواة . فلما تولوا السلطة اضطهدوا القوميات غير التركية ، وحاولوا افناءها او صهرها في البوتقة التركيـــة ، فانتبه المفكرون العرب الى خطر هذه السياسة ودعوا الى مقاومتها ، وتألفت من اجـــل ذلك احزاب عدة كان اهمها « الجمعية القحطانيـة » وهي جمعية سرية اشترك عبد الحميد الزهراوي في تأسيسها وكانت غايتها بعث الامة العربية وتوحيدها وجمع كلمتها وقـــد انتشرت مبادئها بـــين شباب العرب وضباطهم في الجيش العثماني ..

وأنشأ الشيخ عبد الحميد الزهراوي الى جانب ذلـــك جريدة سماها « الحضارة » فكانت منـــبرا عاليـاً للفكرة العربية واحد الاسلحة القوية التي استخدمها العرب للوصول الى حقوقهم المغتصبة ..

وعاد الشيخ الى حمص حين حل المجلس ودعيت البلاد الى انتخابات جديدة . فقاومته السلطة التركية مقاومـــة شديدة وحذرت الناس ، من تجديد انتخابه ، فسقط في الانتخابات العامة ورحل الى الآستانة ليتابع اصدار جريدته ، حتى اذا ما حل المجلس القائم وارجئت الانتخابات النيابية الى اجل غير مسمى ، سافر الشيخ عبد الحميد الى مصر فانتدبه حزب اللامركزية هناك الى تمثيله في مؤتمر باريس العربي ،

فنهد الى العاصمة الفرنسية وترأس ذلك المؤتمر الذي عقد في قاعة الجمعية الجغرافيـة في ١٨ حزيران سنة ١٩١٣ والذي وضع اول مقررات عربية تهدف الى اعطاء العرب حقوقهم المغتصبة وابلغها الى الباب العالي ..

وكان عبد الحميد الزهراوي خلال اقامتـــه في باريس محل اعجاب الجميع ، وقالت الصحف العربية والافرنسية انه كان للمؤتمر بمثابة الدماغ للجسد ، وقد قابل وزير الخارجية الفرنسية المسيو بنسون على رأس وفد عربي وقال له : اننـا واثقون بأن اوروبا لا بد من ان تصغي بارتياح تام الى مطالبنا الاصلاحيـــة بعد ان اتضح للجميع ان المسلمين والمسيحيين منا لا يخالجهم الا شعور واحـــد هو شعور القومية العربية المتآخية الراغبة في التحرر والتطور ، وهذا اعظم برهان على كفايتنا لادارة بلادنا .

وقد اراد عبد الحميد الزهراوي ان يقطع بتصريحـــه الطريق على اولئك الذين اندسوا بين اعضاء المؤتمر بغيـة تحويله لخدمة السياسة الفرنسية ، وادرك الوزير الفرنسي ما رمى اليه عبد الحميد الزهراوي فبعث بكتـاب سري الى قناصل فرنسا في سوريا ولبنــان يطلب اليهم السعي في الخفاء لعرقلة الحركة الاصلاحية ...

وخشيت الحكومة التركية بعد هذا المؤتمر ومقرراتـه الخطيرة ان يفلت من يدها زمام الامر في البلاد العربية . فاعلنت موافقتهـــا على الاصلاح ، واوفـدت الى باريس

رسولاً لمقابلة المؤتمرين العرب ، ودعوة قادتهم الى الآستانة ، فرحل عبد الحميد الزهراوي الى هناك لمفاوضة الحكومة التركية واستنجازها وعودهـا بتنفيذ المطالب الاصلاحية واستمرت المفاوضات بينه وبين مدحت شكري بك حتى اواخر سنة ١١٩٢ .

وكان بين الامور التي تم الاتفاق عليهـا تعيين عبد الحميد الزهراوي وعـدد من رجالات العرب في مجلس الاعيان العثماني ليشرفوا عـلى تطبيق الاصلاحات التي وعدت الحكومة التركية بتنفيذها ، فصدر في ٤ كانون الثاني سنة ١٩١٤ مرسوم شاهاني بتعيين عبد الحميد الزهراوي في المجلس المذكور ...

ولم يرق هـذا التعيين لبعض الشباب العرب وطلاب الاصلاح وعدوه خرقاً لقرارات مؤتمر باريس ، واعلن عبد الحميد استعداده للاستقالة اذا طلب منه ذلك ..

وعقدت الشبيبة العربية اجتماعاً خطيراً في الآستانة دام اثنتي عشرة ساعة ناقش فيها المجتمعون موقف عبد الحميـد الزهراوي ، فتولى عبد الكريم الخليل الدفاع عنه وقـال ان وجود عبد الحميد في مجلس الاعيان خير من عدمه ، لانه يفيد داخل المجلس اكثر مما يفيد خارجه ، وانـه لم يقبل المنصب الا عملاً بالاتفاق السري المعقود بينه وبـين الحكومة التركية باسم المؤتمر لتعيين بعض زعماء العرب في مناصب عالية لمساعدة الحكومة في تحقيق الاصلاح ..

وبعد هذا الاجتماع الطويل اتخذت الشبيبة العربية قراراً بتأييد وجهة نظر عبد الكريم الخليل .. الا ان الضجة لم تنته اذ وقع الخلاف حول هذا الموضوع بين الاصلاحيين انفسهم ، واحتجت بعض الهيئات السورية في المهاجر على قبول عبد الحميد لمنصبه ، وطلب بعضها فصله من حزب اللامركزية . ولكن عبد الحميد الزهراوي ما لبث ان بسط وجهة نظره بوضوح في كتاب بعث به الى السيد رشيد رضا كبير الاصلاحيين العرب في مصر ... فخفتت على اثره الضجة وطوي هذا الموضوع ..

وكان قادة تركيا يضمرون العداء للعناصر غير التركية ولا يفتأون ينتهزون الفرص ليوجهوا اليها الضربة تلو الضربة ... وعلى الرغم من وعودهم بتنفيذ الاصلاحات التي طالب بها زعماء العرب ، واستبسال الضباط والجنود العرب في الجيش العثماني في الدفاع عن الامبراطورية العثمانية حين نشبت الحرب العالمية فان اولئك القادة المتعصبين للفكرة الطورانية اخذوا يقاومون حركات التحرر العربي باقصى ما يستطيعون من ارهاب وشدة ، ونفوا العائلات العربية الى اقاصي الاناضول ، ودفعوا بضباط العرب الى جبهات القتال الامامية للقضاء عليهم ..

وقد اثارت هذه السياسة الغاشمة احرار العرب ، وبعثت الحقد على الاتراك حتى في صدور المعتدلين او الموالين لهم .

وكان عبد الحميد الزهراوي قد انتقل الى دمشق على

اثر اعلان الحرب ، فدعـــا فريقاً من اخوانه الى اعادة التفكير في مصير بلادهم ، وعقد اول اجتماع سري لهذه الغاية في دار عطا الكيلاني ، واعقبته اجتماعات سرية عديدة كان هدفها تحضير الثورة على الحكم التركي الغاشم ...

ولكن بينما كان احرار سوريا يستعدون للثورة على الطغيان الاجنبي ، كان السفاح جمال باشا يستعد للبطش بهم . وما لبث ان قبض عليهم وساقهم الى محاكمة صورية قضت باعدامهم ...

وفي صباح السادس من ايار اشرقت الشمس على دمشق لتشهد قادة والفكر الوطنية فيها معلقين على اعواد المشانق ...

وسيق عبد الحميد الزهراوي الى الاعدام في ساحة المرجة دون محاكمة . ولما ازيح الكرسي من تحت قدميه انقطع به الحبل ، فرفع مرة ثانية ، وشدّه الجـــلادون الاتراك العتاة شداً قوياً ففاضت روحه وهو يبتسم ...

لقد كان يبتسم للفجر الذي انبثق في ذلك اليوم الخالد من ايام البطولة العربية ...

ان بطولة الشهداء كانت اعظم وابقى مـــن وحشية الجلادين ...

ومهما افسح للوحشية في مجال البقاء ، فان البطولة هي التي تنتصر في النهاية ...

وكذلك انتصرت البطولة العربية وتحررت دمشق مـن نير العثمانيين ...

أمين الريحاني

كاتب نظر إلى المستقبل



في مطلع سنة ١٩٢٢ ، هتف امين الريحاني في مصر ، من اعماق ضميره الوطني المشفق على مصير بلاده الراغب في توفير القوة والحرية لابنائها : « انا الشرق ... عندي فلسفات ، وعندي اديان فمن يبيعني بها طيارات . »

وقبل ذلك بسنوات ، وقف ذلك المفكر الكبير على منبر لجنة تحرير سوريا ولبنان في نيويورك ، يعدد امام مواطنيه مظالم العثمانيين التي صبغت من ارواح الناس وجبلت بدمائهم ، داعياً اياهم الى الثورة عليهم ، اذ لا « حياة الا بالحرية ولا حرية الا بالسيف » . ثم يضرب لهم الامثال على روح التضحية في سبيل الحرية فيقول : « في اوروبا وفي اميركا اليوم روح تسود كل نزعات الانسان وكل ميوله ، وكل امانيه ، وهذه الروح انما هي روح التضحية ، روح المفاداة بالنفس في سبيل الحرية ومن اجل الوطن . هذه وربي ضحية شريفة يضحيها الانسان ! »

وبعد ذلك بسنوات ، خطب في حفلة تكريمية اقيمت له في بغداد ، فقال : « لتحي المدنية ، وليحي كل من اشعل مصباحاً من مصابيحها ! »

وظل الامين بعد ذلك ، كلما القى خطاباً او كتب

مقالاً ، أشاد فيه بالمدنية الغربية ، وهاجم علل الشرق ، حتى حسبه الكثيرون خارجاً على بلاده ، واتهموه في قوميته المتينة ، ونعتوه بالسفاهة والتجديف !

والواقع ان امين الريحاني كان يعجب بالغرب ، ويشيد بعلمه وصناعته ، ويدعو الى الاقتداء به ، ليس في ذلك ريب . وكم من مرة وقف وهو في نيويورك على جسر بروكلن ، بعد الغروب ، يسرح نظره في المرفأ الواسع المستدير الجميل ، ببواخره القافلة وقواربه الراسية وزوارقه التي تشق العباب ، ومن فوقها في جنوب المرفأ ، يرتفع تمثال الحرية ليضيء العالم الجديد بضوء نبراسه ، وكأنه محطة للقمر على الارض ، ينعكس نوره منها على البلاد الاميركية ، فقال في نفسه : « متى يا ترى تصير الحرية مثل هذا القمر فتوقد مصباحها لا في الغرب فقط ، بل في الشرق وفي الجنوب وفي الشمال ، في العالم بأسره ؟ » ثم خاطبها بقوله : « متى تحولين وجهك نحو الشرق ايتها الحرية ؟ متى يمتزج نورك بنور هذا البدر الباهر ، فيدور معه حول الارض ، ويضيء ظلمات كل شعب مظلوم ؟ أيتأتى ان يرى المستقبل تمثالاً للحرية بجانب الاهرام ؟ أيمكن ان ترى لك في بحر الروم مثيلاً ؟ امكن ان يولد لك اخوات في الدردنيل وفي بحر الهند وفي خليج الصين ؟ ايتها الحرية ، متى تدورين مع البدر حول الارض لتنيري ظلمات الشعوب المقيدة والامم المستعبدة ؟ »

ولكن مفكراً كبيراً كأمين الريحاني لا ينظر الى المدنية الغربية من وجهة واحدة، لا يرى منها غير محاسنها. والحق ان حملاته على نواحي الضعف في هذه المدنية لم تقل عن حملاته على الجوانب المظلمة في بلاد الشرق نفسها. فقد رأى ان تلك المدنية لا تخلو من تناقض، ومن تناقض كبير جداً، صوره تصويراً شعرياً موفقاً في قصيدته المنثورة « نيويورك » التي خاطب فيها المدينة الاميركية العظيمة بمثل قوله :

« احشاؤك من الحديد وفيها عقمه، صدرك من الخشب وفيه سوسه، فمك من النحاس وعليه صداه، جبينك من الرخام وفي جماله جموده، ويل لابنائك وعشاقك !

« تشربين ذوب الابريز، وتأكلين معجون اللجين، وتنتعلين اجنحة العلم، وتلبسين الفاخر من الحرير والنادر من الحلى، وقلبك قارّ يشتعل، ويل لابنائك وعشاقك.. »

ورأى ان كل شيء في هذه المدينة لا يقوم الا على الضوضاء والتبجح، ولا ينهض بغير الخداع والاحتيال، حتى ان اكثر المصلين انما يذهبون الى الكنائس ليسمعوا اصوات المرتلين وانغام الاورغن، ثم يسمعون عرضاً وعظ الكاهن او القسيس.

وهي بمحالتها هذه، وبحركتها الدائمة، وبارغامها ملايين العمال الذين يكدون ويجاهدون ويعرقون دماً،

على العمل الآلي المستمر في سبيل تأمين معاشهم تقضي على السعادة الحقيقية وتمنع الناس عن التفكير .

فهي مدنية تسودها الروح التجارية ، وتسيطر على حياتها المدنية والدينية والادبية جميعاً . « فمن اجل التجارة ينفخون روح حضارتهم في الشرق ، ومن اجل التجارة يشيدون المدارس ، ومن اجل التجارة يشهرون الحروب على الشعوب الضعيفة ، ثم يظهرون امامها بمظهر الصداقة والمحبة والاحسان . ومن اجل التجارة يبشرون بالانجيل ويتحابون ، ومن اجل التجارة يطبعون الكتب والمجلات . فالتمدن عندهم هو التمول والسلام » .

وقد بلغ التناقض في هذه المدنية اوجه ، وبلغ التفاوت اقصى حدوده ، فبينما يحدث اضطراب هائل في البورصة فيخسر اناس او يربحون عشرات الملايين من الدولارات في ساعة واحدة ؛ يضرب المعدنون بالمعاول عشر ساعات في النهار ويخاطرون بارواحهم في الظلمات الباردة تحت الارض من اجل دولار او دولارين ! وبينما تتكدس في مخازن الشركات مقادير من الفحم تكفي اهالي الولايات المتحدة سنوات عديدة يموت اناس كثيرون في تلك البلاد من شدة البرد في فصل الشتاء ، لان تلك الشركات تأبى ان تبيع بضائعها الا باضعاف اسعارها الحقيقية ، وربما رفضت بيعه باي سعر كان .

شقاء الأكثرية

ان هذه المدنية لا تحقق انتصاراتها الصناعية الا على

شقاء الاكثرية من ابنائها ، ولا تضاعف خيرات الارض الا لتخزنها وتضاعف اثمانها . ومثل هذه المدنية مـا تزال بعيدة جداً عن الكمال ، ولا يمكن ان تدوم على حالها هذه ، واي كمال توصف به مدنية لا تزال تميز شرائعها بين القوي والضيف ، والغني والفقـير ، لان اقوياءهـا ومتموليها هم الذين يضعون هذه الشرائع ، واي بقـاء يرجى لمدنية على هذا الغرار ؟

لقد رأى امين الريحاني من عيوب هذه المدنية ما كاد يحمله على انكار كل حسنة من حسناتها ، واخذ يتساءل : « ما هي يا ترى فضائل تمدننا الحديث التي يرجى ثباتهـا وتعزيزها . هل هي في القوانين السياسية الجديدة التي لا تعزز الا بقوة السلاح ؟ هل هي في الجنـد الاحتياطي الذي يعيش من مال الامة فيضاعف الضرائب ويرهـق الشعب ؟ هل هي في الجهل الذي لم يزل يحارب الحرية بترس الخرافة بعد ان كسر سيف الاضطهاد ؟ هـل هي في اوضاعنا العصرية التي تؤثر العرض على الجوهر ، وترفع الاحتيال على الصدق ، وتقدم الجربذة على الذكاء الحقيقي . والسياسة على العلم ، والجمال على الحقيقة ، والمـال على العـدل ؟

هل هي في ادوات الحرب التي تتكاثر وتتنوع كلما حدثت حرب جديدة في العالم ؟ هل هي في الحروب التي تشهرها الدول الاوروبية المسيحية على شعوب آمنة ضعيفة

اكراماً لشركة تجارية او لحزب سياسي او لوزير يفادي من اجل مصلحته بمصالح الامة ومجدها ؟ هـل هي في الاداب العامة التي لم تزل الى اليوم على نحو ما كانت عليه على عهد قياصرة الرومان ؟ هل هي في الكليات التي تخضع اساتذة الفلسفة فيها لارادة المتمولين الذين يديرون سياستها ، فلا يدرسون فيها من العلوم الاجتماعية الجديدة ما كان مضراً باغراض ذوي الثروة والسيادة الخ ... »

وامام هذه اللوحة السوداء ، يعيد امين الريحاني النظر في المدنية الغربية من اساسها ، ويقارن بين نظـام الملكية الاستبدادية ونظـام الديموقراطية البرجوازية ، فيرى ان هذا النظام ، رغم كل مزاياه وحسناته ، بالنسبة الى النظام القديم ، لم يزد على كونه استبدل من عبوديته السابقة عبودية جديدة : « ولكن العبودية الجديدة تظهر في مظاهر مختلفة واثواب غريبة . فماذا ينفع السجين قولك له : انت حر . ماذا ينفعه تغيير ثوبه المخطط بثوب الرجال الاحرار اذا ظل راسفاً في سلاسل الحـديد مسجوناً في غرفته المظلمة ؟ ... قد تغيرت القيود وتنوعت السلاسل واستبدل النخاسون بغيرهم . تعـددت الاسباب والموت واحد ! » ثم يقول : « ان في الولايات المتحـدة من العبوديات انواعاً واشكالاً . فهناك العبودية في المعادن ، والعبودية في آبار الغاز ، والعبودية في معامل الانسجة ، وفي عالم العمل على الاطلاق . فمتى يا ترى يتحرر الانسان

حقاً وتشمل السعادة والراحة كل أسرة بشرية ؟ »

لقد قامت الثورة البورجوازية على مبادىء الحرية والمساواة والاخاء ، واقرت هذه القيم من الوجهة المبدئية في دساتير الدول الديموقراطية .. والنشأت في اول عهدها اجيالا باسرها على محبة هذه القيم الانسانية النبيلة والدفاع عنها . ولكنها ما لبثت ان وقفت في منتصف الطريق ، فلم تخط الخطوة الحاسمة نحو تحقيقها رغم توافر الامكانات المادية المؤاتية لوضعها اخيراً موضع التطبيق العملي ، بحيث كادت مجتمعاتها الحديثة تكون خلواً من كل اثر لمبادىء الحرية والمساواة والاخاء .

الحرية في اميركا !

وهل للحرية اليوم وجود في بلاد الديموقراطية البرجوازية التي نادت بالحرية ؟

يصف امين الريحاني حياة العمال الاميركيين فيقول ، وقد وقف فوق سطوح نيويورك يسرح طرفه فيما يعلوها من المداخن التي يتصاعد منها الدخان على الدوام نهاراً وليلا : « خيل لي ان هذه المداخن افواه براكين هائلة تنذر بقدوم انفجار عظيم .. فكأنها ايدي اولئك المعدنيين السوداء مرتفعة نحو السماء ليصرف الله عنهم البلاء ، وكأن الدخان المتصاعد من اناملها هو الفائض من دخان الظلمات التي يسكنها المعدنون ويحفرون بها ساكتين صابرين . »

ويقول ان وراء هذه المداخن ، وان شئت فقل تحتها ، الوفاً من الارواح البشرية التي تضرب بالمعاول تحت الارض اثنتي عشرة ساعة كل يوم ، فالدخان هو روح الفحم الذي يحترق في الالوف من الاكوار والمواقد والاتن . ومع الفحم ايضاً تحترق ارواح اولئك الرجال والاولاد الذين يعدنون في ظلمة قتالة لا يدخلها الهواء ولا النور ولا الماء الا بالطرائق الصناعية . فهم يستخرجون الفحم وهم يحملونه الى الارتال التي تنقله الى المدن والقرى . هو عملهم المقدس الذي يحترق الان امامك ويذهب ادراج الرياح . نعم ان نتيجة عملهم للعالم عظيمة ولكنها لانفسهم عقيمة . هي كالدخان الذي يتبدد الان تحت عينيك » ثم يتمنى ان يتحرر المعدنون من هذه العبودية « لا مثيل لها حتى في العبوديات القديمة ، العبوديات التي ابطلت بحد السيف وسفكت من اجلها دماء الاحرار .

ويسأل الامين : « اتحسبون الفقراء والعمال في الجمهوريات من الاحرار ؟ اتقوم الحرية بهذا الوهم الذي يدعونه في الحكومات الدستورية حق الاقتراع ؟ اتعجبون اذا قلت لكم ان نصف سكان الولايات المتحدة لايزالون مكبلين بسلاسل العبودية ؟ »

ثم يقول : « فما الفائدة للخادم من الحرية التي تتوقف على ارادة سيده الخبيثة الجائرة ؟ ما الفائدة من الحرية السياسية التي يكفلها له القانون اذا كان القانون في قبضة الاغنياء ؟

أفمثل هذا يعدّ حراً وهو لا يستطيع ان يبدي رأياً مخالفاً لرأي سيده ؟ ايعد حراً من لا يملك نفسه ، من لا رأي ولا روح له ؟ ايحسب حراً من كان وجدانه مقيداً بوجدان من يتوقف عليه معاشه ؟ فالتسكسك في الولايات المتحدة ، اي بذل ماء الوجه امام ارباب المال ، هو مشتق من التسكسك في الشرق أي تعفير الوجه امام ارباب السلطة والسيادة. والمتسكسك وان ملأ ماضغيه فخراً بالحرية والاستقلال والمساواة ، فما هو الا عبد تكلة ، لا رأي ولا نفس له . »

ويقول جازمـــاً : « .. نعم ، ان الحرية تساعد في هذه البلاد اعداءها على بنيها .. نعم ان الجمهورية الان تساعد المتمول ليظلم بماله .. »

وقد نادت الديموقراطية البرجوازية بالمساواة ، فهـــل للمساواة وجود في بلادها ؟

يقول امين الريحاني : « لا تظن انك راتـع في هذه البـــلاد بظل الحرية والاستقلال وأنك عائش تحت سماء العدل والمساواة . لا ، فهذه كلها اليوم اسم بلا مسمى .. هذه امور لا تشعر بعدم وجودها الا متى طلبتها مضطراً . اطلبها اذاً وانا الكفيل بانك لا تجدها ... »

ويقول : « يقولون ان الاعوجاج في الجمهوريات يتقوم بالاقتراع ، فنقول لهم ان كل صوت كبيراً كان صاحبه او صغيراً يشترى ويباع بالدولار . فاكـــثر الاميركيين مثلا لا يقترعون الا لمن يزيد في اصواتهم . وهذه من مظاهر التمدن الحديث التي نود ان لا تدوم ...

وهو يحدثنا عن كنيسة نيوبورت ، مكة الاغنياء في اميركا كما يقـــول ، التي جيء باخشابها وبراغيها الاولى من بلاد الانكليز ، فيقول ان مقاعد هذه الكنيسة لا تباع ولا تؤجر ولا تقدم مجاناً للمصلين ، لكنها تقتنى اقتناء فكأنها ملك لصاحب بيت يتحول منه الى ابنه بالارث ، ثم يقول متهكما : « ان الاغنياء ليقاسون شيئاً من الكرب بسبب غناهم ، وقد تهضم كذلك حقوقهم . فقد فاه مؤسس الديانة المسيحية نفسه بكلمات مؤلمة شديدة عليهم وقد حرمهم السماء بمثل واحد من امثاله . فوالحالة هذه يجب ان لا يعدموا حقاً بسماء اخرى على الارض في كنيسة صغيرة ، حيث يستطيعون ان يناجوا ربهم على آخر زي دون من يزعج او يلوم .. ها هنا يحبس اولئك الاغنياء المساكين انفسهم ردحاً قصيراً من الزمن . ولا حق لاحد من سائر سكان الغبراء ان يتطفل عليهم في ساعة يوقفونها لعبادة الله . فهم يستوون واقفين في مربعاتهم رصينين متأنقين فيرتلون النشيد المائة والسادس والسبعين او المزمور الواحد والخمسين خاشعين ، فتتشرب كل حواسهم الايمان ، ويستشعرون سلامـــاً وسكينة لا نظير لها في غير عالم الارواح . وهـــذه حال الواعظ الذي لا يلقي عليهم من المنبر شيئاً مـــن امثال الناصري عن الغني والعازار مثلا او عن الجمل وثقب الابرة .

ان هذا المحتوم ليراعي شعور رعيته واميالها .

ويضرب لنا عدة امثلة عن تعـــالي اصحاب الشركات الاميركية عن الشعب الاميركي وعن الدولة الاميركيـــة نفسها ، كمثل مرغن المثري الشهير الذي بعث اليه رئيس الجمهورية وزير الحربية ليرجوه حل النزاع بين اصحاب المعادن وجمهور العمال المعدنين ، فجاء الوزير الى يخته صغيراً مستعطفاً ، وتوسل اليه باسم الرئيس فضّ تلك المشكلة الخطيرة ، ثم عاد كما جاء صغيراً حقيراً حاملاً الى الرئيس جواب المستر مرغن المؤلف من هاتين الكلمتين : سأبـــذل جهدي !

ويقص علينا قصة رجل من ارباب الاحتكار اضطرت المحكمة الى الحكم عليه بالسجن ستة اشهر لخرقـــه بعض الانظمة ، ولكنه لم يعش في السجن كغيره من السجناء ، بل خصته الحكومة بثلاث غرف فرشها من ماله بالسجاد والرياش ، واذنت لأحد المطاعم بان يقدم له طعامــه كل يوم في الاوقات المعينة ، وسمحت لاصحابه وعماله بزيارته كما لو كان في بيته او في مكتبه . ثم يقول الامـــين ، « فما قولكم بهذا العدل في ارض تدعى مهـــد الحرية والمساواة ؟ »

ونادت الديمقراطية البرجوازية ايضاً بالاخاء ، فهل تحقق في ظلها ؟

يجيب الريحاني عن ذلك بأن الاخاء « كلمة لا معنى لها الا في معجمات اللغة ، فالتمدن الحديث يولد في كل فرد

عاطفة الكبرياء والانفة والاثرة والخشونة ، ورجال المغرب لا يقتربون من احد الا اذا كان لهم منفعة شخصية ، فاين الالفة واين الاخاء ؟ »

مسؤولية النظام السائد

على ان امين الريحاني لا يقنط رغم ذلك من تحقيق هذه المبادىء في المستقبل . وتلك مزية من اهم مزايا هذا المفكر الكبير . فهو لا ينظر الى الاوضاع الحاضرة في المدنية الغربية كأوضاع خالدة لا ينالها التحوير والتعديل ، بل يعتقد بانها كما خلفت الاوضاع التي سبقتها فستخلفها اوضاع جديدة خير منها . وكما انهارت الاقطاعيات من فقر ابنائها ، فقد تسقط الجمهوريات من غنى افرادها !

ذلك ان المدنية الغربية الحديثة ، ان كانت قد انجبت مرغن المثري الاميركي الذي تكد وتعرق ملايين الناس من اجله ، وهو يشرب الشمبانيا على ظهر يخته مطمئن البال ، فقد انجبت ايضاً ليون تولستوي الذي يمثل قوة الخير وفكرة التقدم وارادة التطور في ظل تلك المدنية .

وان قوة الخير وفكرة التقدم وارادة التطور لهي المنتصرة حتماً على ارادة الجمود وقوة الاستغلال ..

يقول امين الريحاني ان خيرات الارض تكفي سكانها اذا وزعت توزيعاً عادلاً على الجميع ، ولكن الانظمة السائدة في المدنية الحاضرة ترينا عجباً : « هناك جبال من

الدقيق تطلب من يأخذها ويوزعها خبزاً على العالم ، وهنا الوف وملايين من المساكين يشترون رغيف الخبز بدمهم ودم بنيهم الصغار ، قمحاً ينتظر الطاحن ، وطحيناً يلتمس الخباز ، والالوف من البشر يطلبون خبزاً ، والمحتكرون يقولون لا ، ولماذا ؟ لان الاسعار هابطة ولا ربح في البيع للافراد المحتكرين ! »

ثم يقول : « واما النتيجة ، نتيجة هذا الاحتكار على الفقراء فلا حاجة الى وصفها . لا نريد ان نهـــول بقبحها امام القارىء ونخيفه . ولكن الحالة هذه لا تـدوم . ان البورص هو السد المنيع بين مخازن الاحتكار وبين الشعب ، بين البائع والشاري . ولكن متى جاء الفيضان فلا يجدي ذاك السد نفعاً . نقيم السدود متى كان المـــاء وشلاً او غزيراً . ولكن متى جاء الطوفان وفاضت الانهار ، ماذا تجدي السدود الصناعية ؟ أتقف اختراعات الانسان في وجه الطبيعة وقواتها ؟ أيقدر السمسار في البورص او محتكر القمح مثلاً ان يسكن الهياج متى هبت الاعاصير ؟ اذا كانت خيرات العالم غزيرة الا يجب ان تسود القناعة والسعادة في جميع البشر ؟ ألا يجب ان يكون الكل على مبلغ الكفاية ؟ متى يستريح الافراد من التخمة ويأمن الجمهور من الجوع ؟ كم يموت من المتمولين بالانتفاخ ، وكم يموت من المساكين بالانقباض ؟ » ثم يتساءل : « متى يا رب تتساوى الاعضاء وتتوازن ، فتظهر على الهيئة الاجتماعية علائم الجمال ودلائل

الكمال ؟ » ، ويجيب بقوله : « لا اظن ذلك اليوم يراني ويراك ايها القارىء . ولكنني اؤكد انه آتٍ ، وكل آت قريب »

نهاية النظام الفاسد

ولعل خير ما يجمل رأي الريحاني في المدنية الغربية قوله : « ان مظاهر الحياة وحدودها عند الغربيين اليوم لواضحة جلية . ولا ظل يصل طرفي البياض والسواد في حالهم الاجتماعية . لا غسق يصل نهارهم بليلهم ، ولا طريق تجمع بين عمرانهم ودمارهم ، فهذه عندهم منطقة الغنى وتلك منطقة الفقر والشقاء . هذه سهول العمل والتجارة ، وتلك حزون البطالة والقذارة . هنا فريق العلماء والحكماء ، وهناك جموع خيم عليهم الجهل والتعصب والبلاء . فالفقير عندهم هو الفقر مجسداً والغني هو الغنى موحداً ، والغريب في امر فقرهم وغناهم هو ان البقرات العجاف اللاتي تأكلهن البقرات السمان كل يوم يتضاعفن بالنسبة الى تعدي هؤلاء عليهن ... هذه حال الغربيين النازعين اليوم الى الاشتراكية .

وهو يعتقد ان المسيح لو اراد العودة الى العالم لدعا الى المبادىء الاشتراكية ، وقابل بينها وبين تعاليمه ، وبيّن وجه الشبه بين الاثنين ، وطلب من دول الارض وحكوماتها ان تؤيد الرسل الذين يبشرون بالحرية والحق

والمساواة كما تؤيد من يبشرون بالمحبة والرجاء والايمان...»

ويتخيل العالم في سنة ١٩٥٠ ، فيصوره بلسان جندي من جنود الحرب العالمية الاولى يروي لابنه كيف تناسى الساسة علـــى اثر تلك الحرب المبادىء التي زعموا انهم يقاتلون في سبيلها ، ولكن اثر هذه المبادىء ظل حياً في قلوب الناس وشرع ينمو في الهيئات الاجتماعية ، ولا سيما في الطبقات الشعبية الكادحة التي التهمت نار الحرب رجالها والتي لا تكون حرب في العالم دونها بل لا تقوم حرب الا بها وبضحاياها . ثم يقول له : « .. اجـــل يا بني ، انتهت حرب الامم ولم تنتـه حرب الاحزاب ، احزاب ذوي الثروة والسيادة واحزاب العمال ... لم تنته حرب الطبقات بعضها على بعض المتأصلة اسبابها في المجتمع الانساني بل في اعماق الطبع البشري ، وما زالت الروح الوطنيـة في الشعوب المظلومة تنمو الى جانب الروح الاشتراكية في البلدان المستعمرة ، حتى كان يوم اعلنت فيـــه الدولة الاميركية الحرب مرة اخرى ، وارادت ان تجنـد فيها شعوبها الفقيرة ، فاذا بالشعوب في جميع اقطار العالم تقف في وجه جلاديها وتأبى ان تساق الى الحرب مرة اخرى في سبيل مطامع الشركات ، وتتضافر من اجل السلم والحرية فتأمر حكوماتها جنودها باطلاق النار عليها ، ولكن الجنود رموا سلاحهم الى الارض واسرعوا الينا يعانقوننا : تعانق الجنود والعمال ، واتحدنا على العدو ، عدو التمدن والانسانية

نعم قتلنا في تلك الساعة الحرب في مهدها ، واسقطنا حكومتها واربابها . في تلك الساعة يا بني اشرقت شمس الاخاء والحرية لاول مرة في العالم » . ثم يروي كيف امتدت تلك الثورة الى جميع شعوب العالم ، وكيف سادت المبادىء الاشتراكية في هذه الشعوب ، وانشأت تسير بالعالم نحو المدنية الصحيحة ... المدنية التي تبسط جناح الخير والسعادة والمعرفة على جميع ابنائها .

العودة الى الوطن

بهذا الفهم العميق للعالم الغربي ، وبهذا الايمان القوي بمبدأ التطور ، وبهذه النظرة الواعية الشاملة الى مشاكل العصر ، عاد امين الريحاني الى وطنه في صيف سنة ١٩٠٤ .

وعلى كتف وادي الفريكة ، فوق نهر الكلب المنساب كذوب القبل ، وأمام جبل صنين الشامخ كارادة الله ، رفع للحق راية لم تزل ولن تزال منشورة ..

لم يعد امين الريحاني الى البلاد العربية ليضع لها الأغاني والأناشيد ، ولكنه عاد اليها ليقود ابناءها الى سنة العدل ، ويدعوهم الى عرس الحرية ، فلبت نداءه الأغر طائفة ، وتربصت طائفة ، وهبت اخرى تناصبه العداء ، وهو في هذا وذاك رحب المطلب ، واسع الأناة ، قوي العصمة .. ولقد عانى النصب من ائمة السياسة والدين ،

مما نبا له عزم ، ولا وهن له رأي ، ولا زاغت عنه عقيدة ..

ارادوا منه ان يكون بلبلاً غرداً ، وأبى الا ان يكون إعصاراً يجتاح الغاب ، فينتزع الشوك والعليق كما يلوي السيل بالجذوع العتاق ، ويفتق الورد الأخضر في الغصون النوامي كما ينشق النور من الظلام ...

قالوا له : دع ذكر الشعب والوطن ، وارفق بالقيم والتقاليد ، والزم الشعر فهو خير لك وأبقى ... ولكن قوة الأمين كانت في حريته لا في شعره ، وفي رسالته لا في فنه ، فآثر ان يكون من الطبقة الأولى في الوطنية والانسانية ، ولو وضعه ذلك ، في نظرهم ، في الطبقة الوسطى من الشعراء والفنانين ..

وكانت المسؤولية العظيمة التي أراد ان يتحملها صادرة عن الشعور بشخصيته القوية شعوراً ملآن جلياً .. فقد فهم واجبه كانسان اولاً وأديب ثانياً .. فهم هذا الواجب بكل ما فيه من مصاعب وما يعترضه من عقبات ، وأقبل على ادائه بعين كعين النسر لا تطرف ، وقلب كقلب الأسد لا يلين ، وغنى روحي عظيم كغنى الأنبياء والقديسين ..

لقد أرسل النظر عميقاً في المجتمع وفي الوجود ، فضاق بالأوهام التي تعج في أذهان الناس ، والمذاهب التي لم تستطع ان تقدم لأوصاب الانسانية دواء ، والقيم التي شرعها الأسياد لكي يسيطروا على مقدرات العبيد ..

وهب ثائراً ليحطم هذا الصرح ويعيد البناء من جديد ، وعاش حقبة طويلة نابضة بالحياة ، حافلة بالجهاد ، امتزج تاريخه فيها بتاريخ امته ، فكأنها وجدان واحد لماضي الزمن وحاضره وآتيه .. وهكذا العظماء يبدو التاريخ وكأنه تحضير لظهورهم ويبدون وكأنهم تحضير لذلك التاريخ !

الدعوة الى بعث جديد

كانت عصور الانحطاط قد طمست على ما يزخر في الامة العربية من القوى المبدعة ، فأصبح همها أن تفسر تراث الماضي وان تعيش على اجتراره كرجل وجد نفسه عقيماً فقيراً من كل ثراء فالتمس سد هذه الثلمة في قوة وهمية يستجديها من اسرته ولقبه ...

ولما انبثق القرن الحاضر كانت الامة العربية سائرة الى الامام وعيناها الى الوراء ، وكانت قد بلغت حداً كبيراً من الانحلال ... وكان هذا الانحلال نتيجة حتمية لعصور طويلة تقضت في الظلام والعبودية ، كما كان ضرورة من ضرورات التطور وبدء بعث مشرق تحدث عن نفسه في مئات الدلائل ...

وكان الريحاني ممثلا لتلك الطليعة الواعية ، ذات التفكير الحي الذي يجابه الانحلال لينتصر عليه ويرفع لوطنه منارة جديدة ... فنقد المجتمع العربي أعنف نقد ، ولم يدع

ركناً من الاركان المظلمة الا اراق فيه النور الخيّر ...

ولم يكن الانحلال في ذاته شيئاً يستحق أن يحارب ، فكل تطور خصب لا بد ان يسبقه تحلل في بعض طبقات المجتمع تجمد معه العناصر التي باتت تخشى التطور والتجدد لأنه يؤلف خطراً على تعاليمها وامتيازاتها ... وانما الخوف من انتقال العدوى الى الجماعات السليمة من الامة ، تلك الجماعات العاملة الفتية التي ترقب يومها الموعود لتسلم مقاليد الحضارة وتوجيهها نحو هدفها الامثل ...

ومن ثم كانت سهام الريحاني موجهة الى الفئات المنحلة ، او الفئات التي يلذ لها ان تشيع في الناس روح الانحلال فما تني تخدر النفوس وتستدرجها الى كهوف الوهم ، وتيه الجهل ، وعمى الحيرة . كما تستدرج الرتيلاء ضحاياها من الذئاب بما تنصب حولها من خيوط العنكبوت :

« العنكبوت ، وهل تطيقه في بيتك ؟ فكيف تطيقه اذن في قلبك ، وفي عقلك ، وفي نفسك ؟ بـــل كيف تطيقه في ما تعتقده حقائق إلٓهية ؟ وكيف تطيقـه في ما ينبغي أن يكون لروحك كالمعبد لله : في الآداب ، وفي الشعر ، وفي الفنون ! »

محور التاريخ

وتتبع امين الريحاني هـذه القصة ، قصة الرتيـــلاء والذبابة والعنكبوت ، قصة الظالم والمظلوم والاشراك التي

يتخذها الأول ذريعة لاستغلال الثاني ، فوجدها في العقائد والشرائع والأنظمة جميعاً ، بل وجدها المحور الذي يدور حوله التاريخ ...

لقد قامت في هذا التاريخ الطويـــل دول ، وبذخت حضارات ، وساد الترف ، ولكنك اذا سألت : « كم كان حظ عامة الناس مـن هاتيك المدنيات ؟ هـل كان الصياد والملاح ، والأسكاف والفلاح ، يتمتعون بشيء من النعمة التي بسطت اجنحتها في البـــلاط وفي القصور ، وفي كل مكان قريب من ظلال القصور الملكية والأميرية ؟ هـــل كان للسواد من الناس بعض ما للخاصة من الثروة والثقافة والسعادة ؟ »

لو ألقيت هذا السؤال على نفسك كما صنع الريحـــاني لأجبت كما اجاب : « حقيقة النعيم أو بعض حقيقته للأمراء والاغنياء ، وحديث عنه - حكاية او اسطورة أو قصيدة أو غيرها من خيوط العنكبوت - للسواد الاعظم مـــن الناس .. » تلك شريعة العبيد - بنت الجهل والخوف - يقول واحدهم لمن هو ادنى منه : « أنا سيدك ، وهذا نيري على رقبتك » ثم يقول لمن هو ارفع منه : « أنت سيدي وهذا نيرك على رقبتي ! »

« سبحان من جعل النير رمز المساواة ! »

وبدأت تتكون لأمين الريحاني آراء واضحة في طرائق العيش وطرائق الأصلاح ..

ولعل من الصعب الخروج بوحدة تامة من مؤلفاتـــه ولاسيا من الفصول الاجتماعية التي نشرهـــا في الريحانيات والتي كتبت في مناسبات مختلفة وأوقات متباعدة .. وقد يكون ثمة تناقض بين هذه الفصول التي أعرب فيها عن آرائه سنه بعد سنة خلال ربع قرن من الزمان ، مبعثة تطور الحياة الاجتماعية والدولية ، وتطور امــين الريحاني نفسه معها .. وربما كان بين هذه الآراء ما يشبه البذرة النامية يشهد القارىء نموها في فصل ويتذوق ثمرها في فصل ..

ولعلك تقع في بعض هذه الكتب أو الفصول على آراء خاطئة في السياسة والقومية ، او في المادية والروحية ، كتبها صاحبها يوم لم تستقم حقائق هذه الاشياء في فكره على أساس واضح متين ، ثم ترى هذه الخواطر سليمـــة مستقيمة في مكان آخر ، دون ان يكلف الأمين نفسه عناء التصحيح لما فرط منه وما سبق من رأيه ، جريا على سنته المأثورة : قل كلمتك وامش ..

ولكن الباحث يستطيع ، رغم هذا كله ، ان يخلص من آثاره التي كتبت في اوقات متباعدة ومناسبات مختلفة وأساليب شتى ، بأسس فكرية ثابتة في معالجـــة الشؤون الرئيسية من معضلات الحياة والمجتمع ..

عدو الخرافة والجمود

« أنا عربي شرقي ثوري : عربي يكره الترك ، وشرقي

لا يزدري العرب ، ثوري تهمه الكعبة مثـــلاً مثلما يهمه الدستور »

هكذا كان امـين الريحاني يقول عن نفسه ، وهكذا كان ..

لقد كان كاتباً .. وكان يقال في زمنه ان الكتاب نوعان : نوع يكتب ليعيش ونوع يعيش ليكتب .. فقال هو ان هناك نوعاً آخر مـن الكتاب يعيش ويكتب .. وآثر ان يكون من هذا النوع ، لأنه أيقن بأن الفائدة من الكتاب قد تكبر وتصغر بقدر ما يعيش صاحبه قريباً من الحياة البشرية المتحركة .. وعاش امين الريحاني و كتب فظل دائماً قريباً من الحياة ، سائراً معها ، عائشاً في مجتمعه ، مناضلاً معه .. وتلك هي فضيلته الكبرى .

وقد تأثر الأمين بالمعري وكان يسميه صديقه ، وكثيراً ما استشهد به واقتبس عنه ، وأحب فولتير وقال ان كل أديب سوري يحبـــه ان لم يكن علناً فسراً ، واعجب بروسو لأنه كان يظهر حقيقة مـــا يعلمه بما يعمله ، ورافق الشميل فاتصلت بنفسه شعلة من نفسه أضرمتها غيرة عـلى الحق وشوقاً الى الحرية . ومما قال فيه انه « رفع لواء التمرد على طغاة الزمان وارباب الضلال والبهتان ، مذ دخـــل ميدان الفكر والعلم ، ولم يخفضه يوماً في حياته ، ولواؤه لواؤنا ، حمله وحده بالأمس وستحمله الامة - امتنا - غداً . »

وهكذا تكوّن له ايمان عظيم بالعقل ، وبـأن ناره

المقدسة لابد ان تحرق الاوهام والخرافات ، ونذر نفسه لهذه الرسالة ، رسالة الثورة على كل عتيق جامد يقيد الحرية ويحجب النور ، وجعل لنفسه شعاراً كلمة للغزالي عن الشك قدّم بها الجزء الاول من « الريحانيات » قال » فيها :
« ولو لم يكن الا ما يشكك في اعتقادك الموروث لكفى به نفعاً . فان من لم يشكّ لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في الحيرة والعماية . . »

ومن ثم حمل حملته الشعواء على الجامدين الذين يتمسكون بكل قديم ، لأنه كان يعتقد ان هذا القديم لا يمكن ان يكون صالحاً كله وخالداً كله ، فكل شيء وكل قيمة في الحياة لها أطوار مختلفة لا بد من أن تمر بها ، منها طور النمو وطور البلوغ وطور الاضمحلال ، ومتى دخلت في طور الاضمحلال – طور التحجر والذبول – وجب على القوى الطالعة ان تساعد على اضمحلالها لأن من يأخذ بها يضمحل معها . .

انه مؤمن بالتطور ايماناً لا حد له ، وهو يرى ان الشرائع والأنظمة التي تحرر جيلاً من الناس قد تستعبد جيلاً آخر ، متى فقدت حيويتها وبطلت صلاحيتها للحياة ، فيجب ان تخلفها شرائع وأنظمة جديدة تلائم الأوضاع والحاجات الجديدة ، ويجب ألا يُترك لمخلفات الماضي سبيل للوقوف بالجيل الجديد عن متابعة سير الأجيال الماضية ، وان يُنبذ من التعاليم والأخلاق ذاتها كل ما

من شأنه أن يجمد النفس ويذهب بالبأس والمنعة ويؤخر عن مناهضة الظلم والظالمين ولا يساعد على ترقية العقل بل على ترقية قوى الانسان المادية والروحية كلها : « ان في كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفي كل حال تدابير يبطل الأخير منها السابق لها . »

كان ينادي سقاة العالم قائلا لهم : « ان خمركم مصبوغة ! » ويدعو الشاربين الى تصفية هذه الخمر قبل ان يشربوها .. وكانت المصفاة في رأيه هي العقل ، فبه وحده نستطيع ان نطهر المبادىء والشرائع والأنظمة من جراثيم الكذب والغش والتمويه :

« نظف يا اخي لوح النفس ، نظفه جيداً ، وكن أنت الكاتب عليه لا سواك ، وانقش عليه هذه الكلمات الجميلة العذبة : الحرية ، الحقيقة ، المحبة ، الاستقلال . كن انساناً صرفاً ، كن للأنسانية على الاطلاق . »

عالم واحد

كان يضيق بالجمود والعزلة ، ويرى فيهما خطراً على الفرد والأمة والحضارة كلها . كان يعرف مساوىء المدنية الغربية ولكنه يرى ايضاً حسناتها . وكان يرى فضائل المدنية الشرقية ولكنه يعرف ايضاً عيوبها ونقائصها ... ومثلما كان يعتقد بان المدنية الغربية لا بد من ان تتطور وتستقيم على اساس جديد ، كان يعتقد بضرورة

تطور المدنية الشرقية ، واقتباسها علوم الغرب وصناعاته ، كيما تنشأ في المستقبل مدنيـة جديدة ، لا غربيـة ولا شرقية ، قوامها الصنائع والفنون وشعارها الاخاء العام ... فالقيم الروحيـة لا تصح في رأيه إلا اذا صحت الامور المادية ، والحقيقـة في هذه هي باب الحقيقـة في تلك ...

وهو يستشهد تدعيماً لهذا الرأي بالغزالي سيد السالكين في الاسلام ، والقديس اغسطينوس سيد السالكيـن في المسيحية ، اللذين اختلفا مذهباً واتفقا رأياً ، ويذكر مثلاً قول الغزالي : « من ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم السفر ، وما لم يتم امر المعاش في الدنيـا لا يتم امر التبتل . » او قوله : « كما يستحيل الوصول الى اللب الا من طريق القشر ، فيستحيل الترقي الى عـالم الأرواح الا بمثال عالم الاجسام . » ويعلق على ذلك بقوله : « العلوم المادية اذن هي اساس العلوم الروحية . » ويقول في مكان آخر : « ولا بد من أن تشرق علينا شمس العلم والترقي من المغرب كما تشرق شمس الله من وراء جبـل صنين ، لا بد أن يشرق على سوريا قمر الاصلاح من وراء البحار مثلما يشرق عليها قمر السماء من وراء جبـل الشيخ . لا بدّ من التقاء الشمسين واجتماع القمرين . »

هذا ما يريده أمين الريحاني لأمته ، لانه يعتقد مخلصاً بان لا غنى للامم بعضها عن بعض ، وهي لا تستطيع مهما عظمت ان تعتزل العالم وتأبى التعاون معه : قد كان

للصين سور هدمته التجـارة ، وكان للشرق نطاق من التقاليد والخرافة قوّض التمدن قسماً منه كبيراً . »

أنا الشرق عندي فلسفات وعندي اديان فمن يبيعني بها طيارات ؟ ..

تلك هي الصيحة التي رددها امين الريحاني فأثارت عليه نقمة الرجعيين الجامدين ..

وما ارسل الامين هذه الصيحة إلا لانـه احب وطنه وأحب الشرق حباً صادقاً مخلصاً ، وهل يـلام امرؤ اذا نظر الى بلاده ، فرأى جمال جبالها ووديانها وخيال شعرائها المتغنين بسحر طبيعتها ومجدها القديم ، ولكنه رأى ايضاً ابناءها الغارقين في ظلمات من الكلام وبحار من الدموع ؟..

وهل يلام اذا احب هذه الحياة البشرية في بـلاده ، وأراد أن تتحرر وتسعـد ، وان تتوافر لها أسباب الحرية والنعيم ؟ !

نحو عدالة اجتماعية

أن حب أمين الريحاني لوطنه ليتجلى في المقالات التي كتبها دفاعاً عن شعبه وحقه في الحياة ، أكثر مما يتجلى في الاشعار المنثورة التي تغنى بها بجبال لبنان وظلال الوديان ..

ويبدو هذا الحب على أشده يوم تواطأ على هذه البلاد الظلم والقضاء ، فجاع اهلها اثناء الحرب العالمية الاولى ، بينـما كانوا يناضلون في سبيل حريتهم واستقلالهم ، فقـد نذر

الريحاني وهو يرمذاك في الولايات المتحدة ، نفسه وقلمه لرفع النكبتين الثقيلتين عن كاهل اللبنانيين ، ودعا اخوانه المهاجرين لنصرة اخوانهم الذين يعيشون في هولين : هول المشانق وهول المجاعـــة .. وصام يومين كاملين ليشاركهم بعض ما يعانون ، وليكون مَثَلهُ قدوةً لغيره فيصوم العرب المهاجرون يوماً أو أياماً ويرسلون الى اخوانهم الجائعين ما وفروه من ثمن طعامهم .. ولما أحس أمين عضة الجوع عرف الظلم الذي يعانيه من هـــذا الداء الاجتماعي ملايين الناس في مشرق الارض ومغربها ، فقال ان الجوع ليفقد المرء قواه العقلية والجسدية ، فان الطاوي يعيش على لحمه ودمه .. إنه يأكل نفسه وان حالة اجتماعية توجد مثل هذا الجائع هي حالة ذميمة منكرة فاسدة ، فكيف بها والمسؤولون يجوّعون عمداً امة بأسرها ؟ .. وكتب :

« ان خيرات الارض لتكفي أبناء الأرض ، وان التكافل والتعاون لمن أوليات الوجود الانساني ، فاذا أغفلنا الآن البحث في اسباب المجاعة ونظرنا في نتائجها فقط تحتم علينا النظر أيضاً في الطرائق الفعالة لازالتها — ولازالتها سريعاً . أمة صغيرة في بقعة قصية تتضور اليوم جوعاً ، وأمة كبيرة ، عزيزة الشأن ، عظيمة الصولة ، يفيض عنها من خيراتها . أليس من العدل اذن ، بل مـن الواجب المقدس ، أن نأخذ مما فاض من هذه لنطعم تلك الجائعة؟ نعم ، وما يصح في الامم يصح في الافراد . هذا التعديل

في خيرات الارض عدل لا فضل فيه لمن اعطى ولا شكر عليه ممن قبل العطاء . »

واذا كان هذا الدواء الذي وصفه الريحاني للقضاء على المجاعة ، ولتساوي الناس أن يؤخذ من هذه لنطعم تلك ، ونأخذ من هذا لنعطي ذاك ، هو دواء ساذج لان الحل الصحيح هو تغيير النظام الذي يحرم الجائع من حقه في ما ينتجه والذي يضع مقدرات الامة وخيراتها تحت سيطرة افراد معدودين من ابناء هذه الأمة أو من ابناء امة متسلطة عليها – فهو يدل على كل حال على ما كان يجيش في صدره من ثورة دائمة على الظلم ، وعلى ايمانه بأن الوضع الذي تعانيه بلاده ويعانيه العالم ليس وضعاً صالحاً ولا هو وضع ابدي ، بل هو وضع ممكن الزوال ويجب أن يزول ...

ولذلك نراه ، اذ يستصرخ امته الى النضال في سبيل حريتها وسعادتها ، بايمانه العظيم بأن الامة من الامم لا تموت وفي قلبها ذرة من الرجاء وإن امست أرضها غاباً من المشانق – لا ينسى ان يقول لأبنائها : « واذا رددتم عنها الطغاة المستعبدين ، فلا تكونوا أنتم من المستعبدين الطغاة » لاعتقاده بأن الحرية الصحيحة هي التي لا تسمح ، متى دخلت ارضاً ، ببقاء نصف اهلها عبيداً ونصفها الآخر من الطغاة المستعبدين !

والواقع ان امين الريحاني كان يعتقد بأن لكل انسان

مهما كان منشؤه وطبقته ، حقوقاً متساوية غير متعدية لا يستحق ان يدعى إنساناً من ينام عنها أو يغضي على امتهانها .. ولم يكن يفرّق بين الشعوب والأجناس ، بل يرى انها تستوي في الفطرة البشرية ، اي انها لا يفضل بعضها بعضاً خلقاً وموهبة ونشاطاً ، ولكنها تختلف في ذلك بالنسبة لاختلاف النظم والعادات التي تمارسها ..

وهو يتحدّث عن المساواة في مكان آخر من وجهة صحيحة فيقول : « الحقيقة هي ان لا حقيقة للمساواة في البشر اليوم . والذي يمكننا ان نصل اليه بعد طول الجهد والثبات في مضمار الارتقاء هو ان يعرف كل امرىء مقامه ويجازى كل امرىء على عمله بعدل وانصاف . »

وهذه هي في الواقع المساواة الحقيقية : ان يجازى كل على عمله ، إن خيراً بخير وإن شراً بشر : شريعة واحدة للجميع ، وامكانيات متساوية للجميع ..

تحطيم الاغلال

كانت قوة الامين في حريته لا في شعره ... كان رسولاً من رسل الحرية عزز قيمها في الحياة واستمد منها قوة كبرى حمل بها على كل من يزحف تحت اقدام الظالمين ويحاول تبرير آثامهم ، أو اطالة امد ظلمهم ، وقال : « ان جواهر في تاج الظالم لأغلالٌ في أيدي الامة ، وان سلامة الشرق والشرقيين لفي تحطيم الاغلال . »

وهو يتحدث عن الحكومات فيقول ان القتالة منها وجدت قبل الشافية « ولا فرق بين ان تكون ابوية ، او أميرية أو استبدادية ، فكلها من الأدوية القتالة التي يسقيها الحاكم المحكوم ليقتل فيه الروح ويتمكن من ارهاب الجسد وتسخيره واستعباده . فالظالم مجرم ايا كان . والحكومة الاستبدادية ذاهبة الى البوار في كل مكان . »

هذا هو في رأيي النور الذي سار الريحاني على هداه ..

وهذه هي القاعدة التي بنى عليها آراءه وخواطره جميعاً ..

انه يعتقد بان كل شيء سائر من السيء الى الحسن ، وأن ما هوحسن اليوم قد يصبح سيئاً غداً ، وليس من قيمة مهما عظمت وتقدست تظل صالحة مدى الدهر ، فلا شيء ثابت في الحياة إلا الانقلاب فهو باق فيها الى الابد ، وهو سنتها الوحيده الثابتة والنافذة في كل شيء ، وكل شخص ، وكل امة ، وكل نظام او شريعة ...

يقول الريحاني : « ولهذا الناموس مظاهر عديدة وقد تكون خفية في الاشياء فلما يراها الانسان ، ولكنه يشاهد نتائجها التي تظهر في الاحايين فجأة ، فيكبرها ويدعوها ثورة وانقلاباً ، وما الثورة الا سلسلة من حوادث خفية تتجسم في مظهر من مظاهر الحياة . »

وهو يورد مَثَلَ الزلزال الذي هو ثورة يؤدي اليها تصادم عناصر مختلفة تحت الأرض ، ويقول انه ليس من حادث واحد ، اجتماعياً كان أو طبيعياً ، إلا عن طريق

الثورة وبالثورة حدث « وكأنه غير منفرد في مفعولاته وعوامله عن بقية الحوادث او منفصل عن السابق واللاحق من مجاري النواميس الكلية الشاملة » ثم يقول « والذي يصح في تاريخ الارض والكائنات يصح في تاريخ الأمم والحكومات ، فللثورة ناموس ، وللناموس طريق ، وللطريق منصات فيها عرائس تحمل شموعاً يوقدها الله للناس وهي شموع الزعامة والهدى ، والزعامة بدونها صوت ولا عين وسيف ولا يد ، والزعيم الكبير الصادق من سار الى غرضه في نور تلك المنصات ، فيحق له أن يدعى إذ ذاك زعيم الثورة ، لأن الثورة سنة والزعماء مسوقون بها ، عاملون لها ، حاملون بنودها ، مستمدون من انوارها كل على قدر طاقته ، واذا استطاع اكبر تمساح في النهر أن يوقف سيره او يغير مجراه ، او استطاعت النسور أن تسد فوهة البركان او تخمد ناره ، يستطيع الزعماء في الثورة التأثير على ناموسها الذي هو روحها الحية . »

وقد ردد امين الريحاني هذا الرأي ، غير مرة وفي اكثر من مناسبة ، وانتقد كارليل انتقاداً مراً لأنه نظر الى الثورة الفرنسية كأنها فلتة اجتماعية لا سبب لها ولا نتيجة ، لا سابق لها ولا لاحق ، ومما قاله في الرد عليه : « ان الحلقة التي تصل الماضي بالمستقبل هي حلقة الترقي الدائم مما كان الى ما سيكون ، والحوادث التي تتخللها هي حلقات بعضها يشتبك ببعض وليست متفرقة

مشتتة كما يزعم كارليل . والمؤرخ الذي يكمـــل سلسلة الترقي أو بالحري يزيد في توثيقها يخدم الناس خدمة حقيقية . »

ثم يأخذ على كارليل اعتقاده بالتفرد والافراد وقوله ان تاريخ العالم هو تاريخ عظماء الناس ويجيبه بأن « الفرد انما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين الافراد الصامتين ، فالرجل العظيم انما هو عظيم بشعبه لا بنفسه ، وهو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف والرجـــال ، هو خاضع كأصغر الناس لناموس الترقي الدائم الأزلي بل هو صنيعة هذا الناموس وخادمه المخلص علم ذلك او جهله . »

ويتحدث عن الدستور العثماني فيستخلص العـــبرة من سقوط عبد الحميد الذي لم يكن ليحسب ان في العالم من ينبغي أن تراعى حقوقهم وحياتهـــم سواه ، ويقول : « لا أنكر ان نظرة عمومية سطحية في احوال الانسان الاجتماعية ، ترينا الشرير يسعد بشرّه والصالح يشقى بصلاحه ، ولكن ذلك لا يكون الى الابد ، وانما يظهر كذلك لمن لا ينظر في الامور الى ما وراءها . لمن لا يرى في الحياة غير ظواهر الحوادث . مات كثيرون ممن قاسوا ألـــيم العذاب من الدور الماضي دون ان يشاهدوا نكبة السلطان واعوانه . ماتوا يائسين من الحياة التي ينتصر فيهـــا مثل هؤلاء الاشرار الكبار . ولكن قصر نظرهم فيئسوا . ولو تشوفوا الى المستقبل وكان ايمانهم شديداً بالعناية التي لا تترك الأثيم عزيزاً الى الابد لما ماتوا يائسين . ان ما نراه نحن

اليوم مثلاً وتنفر منه ساخطين حانقين ليراه غداً آخرون فيستجلون فيه اليقين . ان شر الامس لينتج اليوم خيراً ، وخير اليوم قد ينتج غداً شراً » .

واجب النضال

لقد كان الريحاني مؤمناً بزوال الظلم مهما استحكم واستبد ، ولكنه كان يعرف أيضاً ان الظلم لا يزول من تلقاء نفسه ، بل بالنضال العنيف .

وهو يقول : « على المرء ان يدفع الحجة بالحجة والظلم بالحق بل بالتمرد اذا قضى الأمر وبالعصيان ، فكيف والتمرد إذ ذاك حق والعصيان واجب . »

ويقول ايضاً : « قيل ان دخول الحقيقة قصور الطغاة لمن أصعب الأمور ، وهي حقيقة جديرة بالنظر . فلو تأملها الساسة العثمانيون والمصلحون لكانوا يقلعون عن مخاطبة الحاكم في اصلاح شؤون الدولة . فالحاكم لا يُصلح . الحاكم يحكم . وعلى المحكومين اذا كان النير عليهم ثقيلاً ان يخلعوه وينبذوه . »

وكان يعقد آماله في هذا النضال على جماهير الشعب ، ومن قلب الشعب النقي كان ينتظر جيل الابطال :

« تباركت ثمرة بطنك ايتها الاخت الفلاحة ! تباركت في احشائك جرثومة الابطال ، وتبارك من يراها ويعرفها ويمجدها متى ظهرت في الناس لتقود وتهدي الناس ! »

وكانت قيمة النضال تقوم عنده على النتائج التي يفضي اليها وليس على الاساليب التي يلجأ اليها فان « فترة من الفوضى يتبعها نظام جديد قويم عادل لخير من المظالم المستمرة . والناس خارجون من تلك الجادات التي اقام الظلم والجهل على جوانبها سياجاً من الشوك والعليق ، او انهم سيخرجون مكرهين . »

وهكذا كان الريحاني أديباً عظيم التفاؤل ، عظيم الثقة بالانسان ، عظيم الرجاء بالمستقبل ، ينظر اليه دائماً ويتبين فيه من وراء السحب المدلهمة النور الذي ينشق من الظلام .. أديباً عرف ان الماضي لا يستطيع ان يسيطر على المستقبل ، وان المظالم لا يمكن ان تستعبد الشعوب الى الابد ، لأن القوى الكامنة في الغد غير المحدود لا تقوى على إخمادها سلطة تحمل في ذاتها بذرة انهيارها .

عمر فاخوري

عَبقرية الفكر وعبقرية العمل



في ربيع سنة ١٩٤٦ توقف عن الخفقان أكبر قلب عرفته ، وأغلقت الى الأبد عينان وديعتان كانتا أشد العيون نبلا وصراحة وطيبة .. فهل يدري الذين لم تتح لهم الحياة حظ التعرف بصاحب ذلك القلب الرحب ، وهاتين العينين النبيلتين .. هل يدري الذين لم يؤتوا نعمة معاشرته والاطلاع على دخيلة نفسه ، أيّ رجل عظيم قد فقدنا يومذاك ؟ ! ..

أما أصحاب هذا الرجل الذين عرفوه وعايشوه فانهم يدركون ذلك جيد الأدراك .. ولعلي أقوى به احساساً وأكثر له ادراكاً انا الذي أفتخر بانه قد شرفني بصداقته سبع سنوات هي لديّ متعة الدهر وزهرة العمر ، ولسوف يبقى أريجها متضوعاً يعطر حياتي ، ويبقى نورها ساطعاً يضيء طريقي ، وتظل ذكراها باقية ملهمة ..

ذلك لأن الذين لا يعرفون عمر فاخوري الأنسان ، لم يعرفوا الا جزءاً من شخصيته العظيمة .. انهم يعرفون فيه الأديب الكبير والوطني البصير ، ولكنهم يجهلون

ما وراء السطور التي قرأوها له ، والكلمات التي سمعوها منه ، والأعمال التي قام بها ، من قلب رحب الآفاق بعيد الأغوار يفيض بالمشاعر الكريمة ، ويجيش بالحب الذي علمه كما قال أحد اصدقائه ، أن يفهم ويعذر ويغفر ويلتمس الاصلاح بالنصح الذي لا يُحقّر والسخر الذي لا يبين .. وهذا هو لعمري ، سرّ العظمة في عمر فاخوري ، بل في جميع العظماء الذين يشرفون البشرية ويرتفعون بها : ان حياة هؤلاء العظام مثلٌ حي لما يدعون اليه من مبادىء الخير والجمال ، وما يكافحون في سبيله من مثل الحق والحرية ، وليست كحياة اولئك المتعاظمين الذين قال السيد المسيح انهم يشبهون القبور التي يزين ظاهرها الرخام وفي باطنها تعج الديدان ...

الرائد

استقام عمر فاخوري في الأدب على طريقة افتتحها لنفسه هي طريقة الاجتهاد التي قال صاحب « المثل السائر » انها طريقة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها ، يُعَدُّ صاحبها إماماً في الكتابة كما يُعَدّ الشافعي وأبو حنيفة ومالك من الائمة المجتهدين في علم الفقه ، وقال عمر انها الطريق الصعبة الضيقة المستوعرة وليست الطريق الوُود الرحبة المطمئنة ..

كان إماماً سابقاً ورائداً مبتدعاً أطل على الأدب العربي بروح جديدة واسلوب جديد ، داعياً الى الأدب

الحي ذي السمة المتميزة المستقلة ، القائم عـلى الاختبار الصادق المطبـوع .. حاملاً على الأدب المداجي الذي يشوبه كدرُ المواضعات الاجتماعية ورياء الأخلاق السائدة والعادات المستحكمة ، وأدب القوالب المستعارة والتشابيه الجاهزة يأخذها كل شاعر « على سبيل العاربة فيصب فيها استعارات وتشابيه أخذهـا بالدين » .. مزدرياً الأدب المقلد الجامد ، أدب المقولات المكررة والأكاذيب المقررة ، الذي يتزاحم أصحابه بالمناكب في طريق موطأة « يمشي فيها العميان بلا أدلة ولا عكاكيز » والذي « لا يفتأ يرجّع ترجيع الطير الوحيدة النغم ، أو يجتر اجترار الأبل ذوات المعدتين . . »

خرج عمر فاخوري على هـذا كله ، واستنّ لنفسه طريقـة جديدة تفيض فيها المشاعر ، وتتزاحم الصور ، ونسطع الألوان الزاهية .. يزينها اسلوب أصيل صاف كل الصفاء ، معبر كل التعبير ، يتناسق مع الحياة الزاخرة في أدبه ، وينسجم مع أعرق الأساليب العربية .. ويدعمها احساس عبقري بخصائص اللغة تخرج القطعة الأدبية في ظله موزونة موقعة ، كل كلمة بل كل فاصل فيها ، له مكانه الدقيق المحكم .

كان سليل الجاحظ والمعري ، وقرين فولتير وأناتول فرانس ، تدور الدعابة الساخرة المعجزة على طرف لسانه وسن قلمه ، ويعالج أعقد المسائل بأمتع اسلوب ، وأخطر

الموضوعات بابتسامة محببة .. فكان في الأدب العربي الحديث حقبة قائمة بذاتها ، كملت أعرق فنونه وأجمل أساليبه ، وأطلت به على آفاق مشرقة جديدة .

وكانت طريقته هذه ، طريقته النابضة في الشعور بالحياة وفي التعبير عنها ، السريعة الالتفات السريعة الوثبة ، السريعة الانتقال من موضوع الى آخر ومن صورة الى اخرى ، كي تصل الابعاد وتصادم الاضداد بعضها ببعض ، وتخرج منها بصور متلاحمة الاجزاء وآيات محكمة منسجمة... كانت طريقته هذه خاصة به تلمس فيها وحدة نفسه المتشعبة واستقرار تفكيره الفني الخصب ، وهي طريقة ممتعة يميزها قراؤه متى طالعوا فصوله وإن لم يقرأوا اسم مؤلفها ، كعطر امرأة يعرفه عشاقها جيد المعرفة ..

اديب من لحم ودم

لقد ارتفع بأدبه كثيراً وحلق كثيراً ، ولكنه لم يترك الارض التي منها نشأتنا واليها معادنا . لم يهجر هذه الجنة الخراب – وطننا – وهذه العروس النائحة – حياتنا – لأنه كان يعرف ان الصلة لا تنقطع ابداً بين الحياة والادب الصحيح ، ولأنه كان يأبى ان يعيش مثل كثير من « ادباء العصر الذين يحيون في منظومهم ومنثورهم على هامش الحياة ، فصارام اذن ان ينطرح أدبهم جثة على هامش الادب الحق » وان يظل مشغولاً « عن تمثيل

نواحي الحياة وتصوير اخلاق الأحياء » ... اولئك الذين يسمون شعراء وادباء » وهم في الحقيقة طواحين الفاظ » وحفظة نصوص واخبار ، ورواة شعر وامثال ، لو قطعت شرايينهم لما أخرجت الا حبراً ، ولو مزقت لحومهم لما اخذت إلا ورقاً ...

وما اروع الصورة الحية التي يرسمها بقلمه الساخر هذا النمط من الادباء إذ يقول : « لو شئت ان أتمثل الاديب في بلادنا ، وان اتخيل انموذجاً وسطاً لادبائنا ، لما قامت في ذهني الا صورة واحدة ، هي صورة رجل من ورق وحبر ، ولا تكاد تجد فرقاً ، إلا في لون الحبر ونوع الورق . سل هذا « الآدمي » الآن عن حواسه الخمس وعن يقظتها ، وعن نهمها وعن ظمأها ، وسط مجالي الطبيعة واحداث الحياة ، يقل لك بسذاجة لا حد لها « هل غادر الشعراء ؟ » أو هو في الاغلب ، لا يجيبك بشيء ، لأنه لم يفهم ما اردت . والسعيد السعيد من وجد تحت ابطه بيتاً من الشعر او مثلاً سائراً ، فتناوله بخفة ورشاقة ، فلا يسعك الا ان تقول معجباً رغم انفك : « لله ما اسرع خاطره وما أجود حافظته ! » ثم تصافحه مودعاً ، فلا يسعك الا ان تقول : « اف له ! لقد ترك في يدي اثراً من حبره وريحاً من ورقه » بيد انه غداً ، ومن يجيرنا من الغد ؟ سيطلع علينا بقصيدة من نظمه ، أو يهبط بمقالة من نثره ، فيطعننا بها طعنة مميتة —

لولا لطف الله بعباده . »

ولطالما تندر بهذا الأديب ، وقال إنه بحق مبعث استخفاف العامة من الناس ، الذين لا يتحدثون الى شاعر ، بل لا ينظرون اليه ، الا ازهرت على شفاههم ابتسامـــة ذات مغزى : « هذا مخلوق عجيب يعيش في قافية كما تعيش دودة الحرير في شرنقتها » . ونصحه اذا اراد ان يكـون اديباً حقاً ان يجتاز اولاً مدرسة الكشاف ليكتسب الصفات والمزايا اللازمة لكل اهل الفنون ، أو ينمي هذه الصفات والمزايا ان تكن كامنة فيه ، ويتعلم « ان الطبيعة والحياة لها وجود حقيقي ، ولها قيمة ، فلا تُعد العناية بها عبثاً ولهواً وانفاقاً للعمر في غير طائل ... وان الحياة في الطبيعة ومع الناس – على الاقل بقدر مـا يعيش في الكتب – حياة جديرة بأن يحياها : حسبه منها انها تحول دون مسخه رجلاً قرطاسياً ، بل حسبه منها اذا لم يُقدّر له ان ينفع بأدبه فقد انتفع هو بعمره » . ثم يرسل كلمته الساخـــرة العميقة التي سرت مسرى الأمثال : « لا بأس .. لا بأس بأن يظل الأديب رجلاً من لحم ودم . »

الصراع بين الخير والشر

يجب ان نكون من زماننا ، وفي زماننا ، ولزماننا ، هكذا كان يقول عمر فاخوري ، لأنه كان يرى بين الفنون على اطلاقها ، والحياة الاجتماعية ، تفاعلاً مستمراً ليس ينفيه

أبداً الغفلة أو التغافل عنه .. وقــد لابس عمر زمنه ، وأطال اختباره ، فوجده يتميز باحتدام الصراع العنيف بين قوى الخير والتقدم ، وقوى الشر والرجوع ، ووجد أن على نتيجة هذا الصراع الذي اتسع مداه وبلغ أوجــه ، يتوقف مصير العالم أجيالاً متطاولة ، فاما ان يستمر على سيره المطرد نحو أكثر ما يمكن من الخير والعــدل والحق والحرية ، للأفراد والجماعات ، أو تقف في سبيله كي تعوقه عن السير او ترجعه الى الوراء ، قوى غاشمة عاتية ، هي قوى الاستعمار والاستثمار ، جلادة الأفراد والشعوب :

« هذا هو الزمن الذي كتب لنا ان نعيش فيه . هذا هو بهمومه الملحة وأخطاره المباشرة ، بآلامه الموجعة وآماله المغرية .. ولسنا نخشى لومة لائم ، أو تهمة متهم بالشطط او المبالغة ، اذا ما قلنا انه لا متحايد اليوم .. لا متحايد حتى ولا الأديب صاحب البرج العاجي في عزلته فــوق السحاب ، او وسط الضباب ، حيث يقضي عمره منهمكاً في تلفيق المباني وتزويق المعاني . لقــد آن ان يهبط الى الساحة ، بين بني آدم المعذبــين ، ليشاركهم الآلام والآمال ، والهموم والمخاطر ، والافراح والاتراح ، ولعل كل هذا يساوي عنده تلك القافية الشرود التي لا يفتأ يعدو خلفها كما يتصيد الأولاد فراشات الربيع . »

في هذا الصراع بين قوى الخير والتقدم وقوى الشر

والرجوع ، وقف عمر فاخوري وقفة مناضل يدافع عن تراثه وعن امته وعن الأدب والفن ، وعن جميـــع القيم الانسانية ، فهاجم النظرات التي ترمي الى عزل الأديب عن المجتمع وحصره في دائرة المجردات وعالم الخيال المحض ، كنظرية الفن للفن وحـــده ، لا لشيء آخر ، حتى ولا ليفهم .. وأقام البرهان على ان هذا الاتجاه يتجه الأديب انما هو اتجاه اصطناعي ، بـــل ضرب من المستحيل ، اذ « لا غنى للفرد ، مهما تفرد ، عن المجتمع بأية حال . »

وما أمتع اشارتـــه في هذا الصدد الى رسالة كتبها جبران لمي وقال فيها : « أنا ضباب يا ميّ . أنا ضباب يغمر الأشياء ولكن لا يتحد واياها . أنا ضباب لم ينعقد قطراً . أنا ضباب وفي الضباب وحدتي ، وفيـه انفرادي ووحشتي ، وفيه جوعي وعطشي . ومصيبتي ان الضباب ، وهو حقيقتي ، يتشوق الى لقاء ضباب آخر في الفضـــاء ، ويتشوق الى استماع قائل يقول : « لست وحدك . نحن اثنان . أنا أعرف من أنت » الخ .. وجواب مي له : « اني ما أزال ألتقي بك في الضباب ، عالمنا الذي منـه كل شيء واليـــه كل شيء يرجع ... ولكننا من روح وجسد ، ولا بد ان تكون مـرائنا مزيجاً من المحسوس وغير المحسوس - مغزاه : اني يروقني ان التقي بك في الضباب وخارجاً عنه ... »

ويعلق عمـر على ذلك بقوله : « لا غنى لـلكاتب عن

قاريء ، ولا للضباب الذي سمي في دنيانا هذه جيراناً عن ضباب آخر يضرب له موعداً في مجاهل الفضاء ... »

لا حياد

وقد تسأله لماذا يجب أن نكون من زماننا ، فيجيبك ببساطة لاننا لا نستطيع ان نكون غير ذلك ، فنحن من زماننا شئنا ام ابينا ، ليس في هذا خيار . انما لنا خيار في أن نكون مع هذا الجانب أو ذاك من القوى المصطرعة في الزمن الذي نعيش فيه .. وقد تزعم انك تستطيع الوقوف من هذا الصراع موقف الحياد ، فيجيبك ان لا حياد ، لأنك بحيادك هذا انما تقف بالحقيقة الى جانب القوى التي تريد بقاء الأوضاع الحاضرة ، بما تنطوي عليه من جور وفساد ، على ما هي عليه ، والتي لا يهمها شيء بقدر ما يهمها ان يقف رجل الفكر من الانظمة التي تتشبث بها ، ومن صراعها اليائس مع قوى الخير والتقدم موقف اللامبالاة :

« إن حياة الفرد في المجموع ، وحياة المجموع في العالم ، وما يثار حولها من مسائل ، ويعرض لها من مشاكل ، ان هي الا أجزاء من كل : عناصر في جسم مركب ، تتمازج وتتفاعل فيما بينها . فلا مظهر من مظاهر النشاط في ميدان من ميادين الحياة الفردية او العامة ، إلا وله أثر أو رد فعل في سائر المظاهر ، في سائر الميادين : أثر او رد

فعل لا يبطيء ولا يهمل . وكذلك ايضاً ، لا مراء ، مظاهر « عـــدم النشاط » الذي لا يصح أن يطرح من الحساب .. »

وبعد ، فمن الذي زعم ان الفن يجب ان يغضي عن المساوىء ؟ ... من قال ان الفن رداء يجب ان يطرح على سوأة نوح في غفلته ؟... ومن قـال ان الفن طبيب جاهل دجال يخدع العليل عن علته ؟.. وهل تكون الاجمة التي تأوي الى أدغالها الرذائل والمفاسد والمساوىء والخيانات « حرماً » من دخله فهو آمن ؟

يطرح عمر هذه الاسئلة ثم يجيب عليها بقوله : « كان الرياء الاجتماعي والحياء الكاذب ، ومـــا زالا ، اليدين القويتين الأثيمتين اللتين تأخذان بعنق الفن فتخنقانه خنقاً . كان الرياء الاجتماعي والحياء الكاذب ، وما زالا ، السدين المنيعين المخوفين اللذين يمنعان « الفساد » ان يناله « الاصلاح » بسوء .. » ثم يهتف : « تريدون ادباً صحيحاً ، اذن فلندع الحياء الكاذب . وتريدون اصلاحاً اخلاقياً ؟ اذن فلندع الرياء الاجتماعي .. » واذا كانت حياتنا ذميمة فليكن أدبنا من « شهود الاتهام » لأن السكوت عـــن الرذيلة كتمان لها واغراء بها ، وليس يستطيع الفنان الحق ان يشهد الزور ، ولا ان يغري بالرذيلة ولو بسكوتـه عنها » وهل كان الاديب او الفنان الا رجلا من امة ، وعضواً في مجتمع كعقرب الساعة على الاكثر ؟ انه يتكلم بلغتنا ، ويستمد من بيئتنا ، ويعيش في جونا ؟ هـو ابن

جغرافيته وتاريخه . هو يأخذ فكيف لا يعطي ؟.. »

اديب في السوق

وهنا تسطع الابتسامة المخيفة على قلم عمر فاخوري فيقول : « الحق ، ليس في مجتمعنا اشياء كثيرة يرضى عنها ، بل كاد لا يكون فيه ما يرضي مطلقاً ، في دنيا الكدح هذه ، في جميع مظاهر حياتنا ... فلو نحن طالبنا الاديب بأن ينزل الى « السوق » حيناً بعد حين ، في غير حاجاته المعاشية ، فقد طالبناه اذاً بأن ينظر ويعرف ويعقل ويشعر ، وينفعل ويتحمس ، فتدخل – ويا للمصيبة – هذه العناصر جميعاً في مادة أدبه ، وليس بعد ذلك – ويا للفضيحة – الا ان نلزمه القيام بعمل اجتماعي ، بينا هو يؤثر الاعتزال في برجه العاجي ، في تفرد حصين ... لا اذن تسمع ، ولا عين تدمع . كيف – يا رعاكم الله – تريدونه على التنازل عن « رسالة » الاديب ، مستبدلاً بها « وظيفة » الاديب ؟... رسالة الاديب ! .. لقد كان الانبياء وحدهم ، فيما غبر من القرون ، ذوي رسالة ، فاذا كل من عليها اليوم وله رسالة : الطبيب والمعلم والصحافي والمحامي ، ويتبعهم الاديب ، حلة مبهرجة لستر الفاقة .. حبذا لو أن هؤلاء « الرسل » يقلون من التبجح برسالاتهم أقل كثيراً ، ويكثرون من اداء وظائفهم أكثر قليلاً .. »

وقد يقول قائل ان هذا الاتجاه الخطر انما يعني

الاشتغال بالسياسة ، وتسخير الأدب والفن لأغراض لا تدخل في نطاقها أو لا ترتفع الى عليائها ، فيجيب عمر : « ترى اية سياسة يعنون ؟ أاذا كان كل قيمة انسانية ، وكل مثل أعلى ، عرضة لأدهى خطر ابتلي بـه المجتمع ، بينما الأمم والأفراد في معسكرين اثنين ، في نضال مدجج بالحديد مضرج بالدم ، في ملحمة كملاحم الأساطير . ترى ، أمن الاشتغال بالسياسة ، أن ينظر الأديب ، ويعرف ، ويعقل ، ويشعر ، وينفعل ويتحمس ، ثم يرسل صيحة أو يصعّد زفرة ، أو يهتف لأحد المعسكرين ؟ اكبر الظن ان « هؤلاء » الأدباء انما ينعون على « ذلك » الاديب اشتغاله « هكذا » بالسياسة ، لأنهم في أقصى ضمائرهم لا يملكون « هم » ان يهتفوا للمعسكر الآخر . فنحن لم نرهم يوماً يأخذ بعضهم على بعض ، انهماكه في سياسة ما : سياسة تعيين المخاتير ، بله النواطير . »

لقد أخذ عليه اناس هذا الاتجاه في أدبه ، وهذه العناية بشؤون لم يتعود الأدباء العناية بها ، فكان يجيب ساخراً : نحن لا نعرف السبيل لا نظرياً ولا عملياً ، الى « الترفع عن الدنايا » التي تتـألف منها « حياة » كل يوم ... وكان يقيم بنتاجه الدليل الملموس على ان الفنان الحق يستطيع ان يتناول اي موضوع كان ويبدع منه فناً رفيعاً ، كمثل الجاحظ الذي وصف الشحاذين في عصره بدقة وبراعة فانطقهم وأحياهم ، ومثل ابي نواس الذي

نظم قصيدة في رجل منسي نسبه ، مجهولة حاله ، لا يعلم من شأنه الا انه كان يجلس في مسجد البصرة يفلي القمل والبرغوث ، فأخرج صورة شعرية رائعة ألبسها من دعابه وظرفه وسخره ، حلة لطيفة بهيجة زياً ولوناً .

لا بد لنا من رأي في الحياة

من الأقاصيص والصور الممتعة التي يحفل بها أدب عمر فاخوري ، حكاية شائقة عن معلم له كان يقضي اكثر عمره إما نائماً او مهوّماً .. فاذا كان في قاعة الدرس جلس الى الطاولة معتمداً رأسه بأحدى يديه ، ثم يأخذ في القراءة .. وكان على الأغلب يقرأ مغمض العينين في كتاب مفتوح .. فاذا حدث ما يثير انتباهه أغلق كتابه وفتح عينيه .. أما في الملعب فكان هذا الحمل الوديع يتزيا بجلد الذئب الذي ينام بأحدى مقلتيه كما قال الشاعر ، فاذا تآمر عليه النعاس والتخمة ، بعد طعام الغداء ، ليصرعاه ، لم يقاومه طويلاً ، بل ينصرع عن طيب نفس ، كأنه وجد عذراً لا يرد . وذات يوم بينما كان هذا المعلم في الحديقة ، نائماً ملء جفونه ، والأولاد حوله يتعادون ويتنادون ، ليس يزعجه شيء كأنه وسط دائرة مسحورة لا يصل اليه فيها صوت من الاصوات او حركة من الحركات .. دنا عمر منه وصرخ به كالمستغيث : « يا معلمي ! » ثم سأله : « ما غايتك من الحياة ؟ » فانبسطت اساريره بعد ان ذعر وتحفز

لجابية خطر مداعم ، وقال متمهلاً كأنه يفكر في الجواب : « غايتي في الحياة ؟ آكل وأنام . » وألقى رأسه على كتفه ، ثم قال في شيء من الحدة : « لكن يا معلمي ، هذا سؤال لا يسأل ! »

ويقول عمر معلقاً على هذه النادرة : « لو أني قلت له يوم ذاك متفلسفاً : ألا تظن يا معلمي ان لا بد لكل امرىء من رأي في هذه الحياة وأحداثها ؟ لا بد من ان يتخذ لنفسه موقفاً بازائها ؟ قد لا يتعدى هذا الرأي طور الاحساسات الغامضة أو الاحكام السريعة ، وقد لا يكون هذا الموقف بارزاً او صريحاً أو مُمكيناً ، لكن لا مناص منه بحال من الاحوال . ففي طبيعة الوجود ذلك التفاعل المستمر بين الاحياء وبين البيئة التي يعيشون فيها ، سواء الاحياء الدنيا أم العليا ، وسواء البيئة المادية ام المعنوية .. فما موقفك أنت ، يا معلمي ، من الحياة واحداثها ؟ » ثم يتخيل عمر لهذا السؤال جواباً يتلاءم وروح تلك الأقصوصة وطبيعة هذا المعلم وينسجم مع واقع الحياة .

اجل ، لا بد لكل امرىء من رأي في الحياة واحداثها . وما العمل اذا كان هناك ادباء كعمر فاخوري يعيشون في قلب هذه الحياة لا على هامشها ، ويكوّنون لانفسهم رأياً فيها : « ما العمل اذا كان لنا رأي في كيف يجب ان تساس الافراد والجماعات ، وكان لنا نظر في المبادىء التي ينبغي ان توطد ، وفقاً لها ، علاقات بعضهم ببعض ،

فنحن لا نجد بدآ من تحبيذ ذلك الاسلوب في الحكم ، ومن الانتصار لتلك المبادىء في السياسة ؟ ما العمل اذا كان ثمة مثل اعلى لحياة الافراد والجماعات ، ينعمون كلما قطعوا شوطاً نحو تحقيقه ، بأكثر ما يمكن من الخير والصلاح والطمأنينة ، وقد استهوانا هذا المثل الاعلى ، وشغف قلوبنا ، فنحن راضون ان نترسم خطى القافلة المباركة ، المهدية الهادية ، التي تقود البشرية الى ذلك الهدف الأسمى ، منذ فجر التاريخ ، قافلة الرسل والحكماء والمصلحين ؟

« ما العمل اذا كنا - ولله الحمد - قد اجتزنا من أدوار العمر ، ذلك الدور الذي يهتفون فيه للقتلة واللصوص في الافلام السينمائية ، فأولى بنا نحن ان لا نحيي الجريمة المتلبسة بلباس القوة وهي توشك ان تبسط يدها الآثمة الينا ، لتقضي على حرياتنا ، ولتفجعنا بكل ما هو اثير لدينا عزيز عندنا ، او على الاقل ، بما نرجوه من مستقبل لهذه البلاد التي لا رجاء لها الا في غلبة القوى الخيّرة والمبادىء العادلة ؟ ما العمل اذا كنا نفضل الضحية المظلومة على مضحيها الظالم ، ونرفع المسروق ماله فوق قاطع الطريق درجات ؟... »

آية عمر

ومن ثم يدعو عمر فاخوري دعوة حارة الى الاشتغال

في السياسة ، في هذه السياسة ، وينادي الى الكفاح لتحقيق نظام هو حقاً جديد ، تتمتع فيه الأمم والافراد ، بأكثر ما يمكن من العدل والكرامة والحرية ..

ولقد اشتغل هو في السياسة ، في هذه السياسة بعينها ، وجاهد في سبيل ذلك النظام الذي اراده لوطنه وللعالم ، فظل ادبه جارياً على أحكام الفن موصولاً بأسبابه ، وازداد قوة وعمقاً ودنواً من قلب الحياة ، ولم يخرج حتى في مقالاته السياسية وخطبه الانتخابية عن الطريق التي استنها لنفسه في السمو والابداع والتجويد . قال مارون عبود : « قالوا ما دخلت السياسة شيئاً إلا افسدته ، أما انا فأقول : حاشا أدب عمر . قد وطدت كتبه ايماني بأن الأديب الأصيل لا يتخلى عن خواصه حتى في قاع جهنم . »

وتلك في الواقع آية عمر ..

ان الأدب الذي كان يتعبد له ويضرع الى الله باسمه قائلا : اللهم هب لنا شعرنا اليومي ! ويسمي واحته جزءاً من الفردوس المفقود ، ويروي ان له قديسين اخياراً ضحوا من اجله بحياتهم كلها ، وان له شهداء ابراراً ، وان في ساحته المنصورين الامجاد .. الادب الذي كان يعتقد ان فيه سحراً لا رقية منه ، أو داء ليس يبرأ منه المصاب به ، او عشقاً كسائر انواع العشق يتيم المرء ويملك عليه لبه جميعاً ، ويذهب الى ان الله لو لم يخلق هذه الدنيا التي نحسها ونعيش فيها ، من تراب وماء ونار وهواء ، لخلقه

أبجدياً ، من نوع العالم الذي يخلقه الشاعر والقصاص ..
ان هذا الأدب الذي استغرق من عمر فاخوري كل مشاعره وخلجات قلبه ، قد نذره لجماهير الشعب الكادحة في وطنه ، وعالج به آلامها وهمومها ومطامحها ، فازدادت به قوة وازداد بها حياة ، وظل الاديب الاكبر ، وظل أدبه الرفيع الفذ ، بل خالجته من جراء ذلك روح جديدة اكثر اتساعاً وعمقاً وأدعى الى الخلق والابداع ...

ذلك ان التجويد كان شغفاً فيه وليس صنعة يتصنعها ، وان الابداع كان طبعاً أصيلاً فيه ، وان حياته مع الشعب ونضاله الى جانبه وسيره في طليعته لم تكن لتضعف من حسه الفني وموهبته الأدبية بل كانت تقويها وتزيدهما غنى والهاماً ..

ولم تكن معالجته الموضاعات الاجتماعية والسياسية لتصرفه الى التهاون في الاسلوب ، بل كان حريصاً على العناية القصوى بطريقة الاداء ، قاسياً في ذلك على نفسه . وما اكثر ما قضى الليالي الطوال عاكفاً على الكتابة « فمزق كثيراً من الورق قبل أن يملأ صفحة واحدة . »

وهو حين كان يأخذ على الأديب عزلته فوق السحاب ، حيث لا يرى ولا يسمع الا بعض ما يسمع ويرى العملاق .. من دبيب النمل في مدارجها ، لم يكن ليعني عزلة الشعراء والفلاسفة وعامة أهل الفكر الذين « يحسون حاجة لا تُدفع الى الفرار من ضوضاء العالم ومشاغله

اليومية ، فيعتزلون اشهراً أو أعواماً ، ليطلعوا علينا بعدها بروائع الفن والحكمة ... لا ، ان العزلة لهؤلاء واجبة لا مندوحة عنها : واجبة نحـــو انفسهم ، ونحو عملهم ، وبالنتيجة نحو الناس الذين من أجلهم ينظم الشاعر ويفكر الحكيم ..» بل كان يعني « ضرباً من العزلة هو كالقطيعة ، بل القطيعة بعينها في أوضح مظاهرها . »

الفن للوطن والشعب

وهكذا كان مثل فلوبير الذي ضربه مثلا على الأدباء الكبار الذين يصلون ما بين أدبهم وحياة النـــاس الذين عندهم ينفق هذا الأدب او يكسد وليس في المريـــخ ، ويستغرق حب الأدب في الوقت نفسه قواهم جميعـــاً ويستنفدها حباً يملك عليهم مشاعرهم حتى ليضحوا من أجله بحياتهم كلها ولا يهمهم الا ان يخرجوا للناس آية فن باقية على الزمن ، وقد قال عنه :

« عاش كثيراً ورحل رحلات كثيرة دام بعضهـــا شهرين كاملين ، مشياً على قدميه ، وكان يحمـــل هراوة وكيساً ودفتراً من الورق الأبيض سوّده بسرعة . فلمـــا عاد من رحلته اعتكف في داره مترهباً مخلصاً وجهه لفنه الحبيب وللطرفة الأدبية التي يريد اخراجها » . كان ينقح الصفحة الواحدة بضع ساعات ..

لقد وهب عمر فاخوري نفسه للفن ، وأعطى فنـــه

لوطنه وشعبه .

لقد تساءل عن مصير شعبه في هذه العاصفة التي يخوضها العالم ، وتأمل حال وطنه الذي نام مع بلدان الشرق قروناً عديدة كما نام اهل الكهف ، فلما استيقظ في القرن الماضي ، يقظة أهل الكهف ، وراعه ما راعهم من ان الارض تبدلت ومن عليها ، واذا هو في عالم غير عالمه الاول العريق في قدمه وفي سكينته ، ذلك العالم الذي الفه زمناً مديداً ، وألف جموده ، ونام على الثقة فيه ، الى حد ان الالفة اصبحت حالة بين النوم واليقظة الحالمة .. لما استيقظ الشرق ، رأى فوق رأسه اوروبا — الجبار الشاكي السلاح من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ورأى اوروبا — التاجر الذي يحمل في حقيبته السلع بأنواعها ، ورأى اوروبا — المعلم الذي يتقدم الجبار والتاجر أو يرافقهما خطوة خطوة ، رائداً ممهداً السبيل الى السلطان السياسي والاستغلال الاقتصادي . »

وأحرق عمر الظمأ الى تحرير بلاده ، وأقض مضجعه هذا المصير الذي صارت اليه ، واراد من الشرق كله ان يجتاز المراحل الكثيرة التي تفصل بينه وبين الغرب ، هذا الغرب الذي يمشي منذ قرون ، في شروط من الحياة غير شروطنا ، مشيته الحثيثة ، غير حاسب للخطى حساباً ، ولا يصح ان يُسأل توقفاً او تريثاً ، حتى يلحق به اخوه التوأم الآخر .

ووضع عمر هذه المهمة على عاتق الشباب المثقف الواعي

بنوع خاص ، قائلاً : « ان على الشباب المثقف واجب حث السير ومضاعفة الجهود للنهوض بنفسه ، لكن عليه واجباً آخر ليس دون الواجب الاول خطورة وصعوبة هو رفع مستوى الجماهير بحيث لا نبعد الشقة بين الشباب المهدي الهادي وبين السواد الاعظم من الامة .. ان الكلمة اليوم للشباب ، والكلمة هي العمل . »

وقال في مكان آخر : « نحن امة نعيش على دائرة ندور حولها ، محتوين ببضع عقائد ومصالح وقصائد ... وكأننا لا تحدثنا انفسنا بالخروج من هذه الدائرة المسحورة كي نساهم في الحركة العامة التي تدفع الامم الى احتذاء اساليب جديدة في الفكر وصيغ مستحدثة من الحياة . لقد بَعُد عهدنا على ما يظهر ، بالفكر الوثاب والحياة ، حتى أمسينا كآلة قديمة الطراز ، صدئة الجهاز . فاذا كان هذا الصدام المشهود الذي يتطاحن فيه كل ما بالعالم من قوة مادية ومعنوية غير قادر على ان يبعث فكرنا من مرقده ، وينشطنا الى الحياة والعمل ، فهو والله اليأس المطبق والفشل المتحقق . »

التفاؤل بالمستقبل

رأى عمر فاخوري الوضع المفجع الذي تعانيه بلاده ، رآه باتساعه وعمقه ، في كل مظهر من مظاهر الحياة .. ولكنه رأى ايضاً إمكان تغييره وتحسينه ، لأنه لم يكن

يؤمن بتلك الحكمة المأثورة « ليس في الامكان ابدع مما كان » التي هي أشبه ، في لطف وقعها عـلى الآذان والاذهان ، بالترانيم التي يراد بها التنويم ! بل كان يعتقد ان « في الامكان دوماً على مـدار الزمان ، غير - اذا لم نقل ابدع - مما هو كائن . وليست سنة الوجود المحافظة ولا البقاء ولا الجمـود ، بل التطور والتحول والصيرورة . وهل كان التاريخ الانساني الا حكاية النزاع المستمر المستحر ، بين قوى الرجعية ونزعـة التقدم ، في فكر الانسـان وفي اوضاعه ؟ وهي قصة - لحسن الحظ - كالقصص التي تختوم ذاتها ، يفوز فيها اخـيراً ، في كل مرحلة ، الحقّ عـلى الباطـل ، أو الخير على الشر - نعني : الترقي على الرجعية . »

بهذه الروح الوطنية الواعية الصادقة ، بهذه النظـرة العلمية الشاملة ، بهذا التفاؤل العميق الذي يعتمد على دراسة قوانين الكون والمجتمع ، كان عمر ينتج ويبدع ، يعمل ويناضل ..

وبعين الفنان العظيم المفكر الحكـيم ، رأى كيف يتمخض العالم الراهن ، في عصف ازماته وتصادم تناقضاته ، عن عالم جديد يتمتع فيه الافراد والامم بأكثر ما يمكن من الرفاه والحرية ..

ورأى بناة هذا العالم الجديد من الكادحين بسواعدهم وادمغتهم ، طليعة جيش التقدم والمساواة والحرية .. رأى

جماهيرهم الغفيرة تتقدم حتى تسد الأفق .. افق العالم كله ..
وقال ان بلادنا لن تكون بمعزل عن « هذه الحركة العامة التي تدفع الامم الى احتذاء اساليب جديدة في الفكر ، وصيغ مستحدثة من الحياة . ذلك هو الطوفان ولا عاصم اليوم . »

رأى تلك المدينة الفاضلة التي ما فتئت تطمح اليها الانسانية منذ الوف السنين وقد توافرت الظروف المؤاتية لأن تتحول من حلم جميل الى حقيقة واقعة ، وبدأت الايدي العاملة الخلاقة والعقول النيرة البناءة تضع اللبنات الأولى في هذه المدينة الموعودة ..

عناق الفكر والعمل

ولكنه لم يكتف بأن يرى ذلك كله ويبشر به ، بل أراد ان يعمل من أجله ويكافح في سبيله ..

لم يكتف بأن يتمثل فكرة التحرر بل أراد ان يعيشها ..

وهنا اكتملت آية عمر فاخوري ..

فالأديب الذي كان رهين الكتاب وكان يقول ان « الكتب التي طالعتها هي اعظم حوادث حياتي » بدأ ينشيء الحياة ويبنيها ، وأصبحت حياته سفراً من أعظم الأسفار ..

أصبحت حياته فكراً يتجسد عملاً !

وفي الواقع ، ان هذا الاتصال الأصيل ، البعيد

الغور ، بين عبقرية القول وعبقرية العمل ، كان من المسائل التي شغلت ذهن عمر فاخوري طول حياته الفكرية ، ولطالما ردد جازماً : « ليس يكاف ان نقول بل يجب ان نعمل ما نقول » وهذا هو المعنى العظيم الذي قصد اليه بقوله في المقدمة التي كتبها سنة ١٩٢٨ لديوان الشهيد عمر حمد : « لعل شهادة عمر حمد لاعلاء كلمة امته ، أشجى قصيدة ينظمها شاعر ، وأروع نشيد ترفعه الأرض الى السماء .. »

هكذا التقت عبقرية الفكر وعبقرية العمل ، في رجل سار في طليعة قوى التقدم والتحرر ، معلماً ومتعلماً ، وفي أديب ظل على اتصال وثيق بالكون والحياة « كون لا تنفد روائعه ولا تحد صوره ، وحياة لن تزال متطورة متحولة ، فكأنه بعث مستمر في خلق جديد . »

لقد قضى عمره في دراسة هذا الكون وهذه الحياة ، لكنه لم ينته ابداً من قراءتها .. لم يكن يستطيع ان يقول يوماً : « اني ختمت » .. لأنه لم يكن رجلا من حبر وورق ، بل كان أديباً من لحم ودم ..

الوطنية الصحيحة

وشد ما اكتشف في هذه الدراسة المستديمة لوطنه والعالم من قيم جديدة ... وشد ما هتك الاستار عن قيم زائفة ... فقد رأى ان المرء لا يستطيع ان يحب وطنه

حباً صحيحاً الا اذا احب الانسانية التي يؤلف هذا الوطن عضواً منها لا ينفصل عنها دون ان يدمى ويتألم ويموت .. وأيقن بانه ليس في وسع الانسان ان يحب وطنه حبــاً صحيحاً دون ان يحب شعبه ، وان يريد الخير لوطنه دون ان يريده للجماهير التي هي مادته الحية ، وان ينعم وطن بالحرية وابناؤه مضطهدون مستعبدون ، وان يكون الاستقلال شيئاً قائماً بنفسه لا يتمتع به اولئك الذين بنوه او وضعاً خارجياً محضاً لا يتأثر بما ينخر في داخله مــن عوامل الفساد !... فقوام محبة الوطن هو محبة الشعب الذي يؤلفه ، وحرية هذا الوطن هي حرية هذا الشعب ، واستقلال الوطن استقلالاً ثابتاً تاماً لا يتحقق ولا يتوطـد الا اذا شعر كل مواطن بأن هذا الاستقـلال الذي ناضل من اجله وضحى في سبيله هو نعمة عامـة ينبغي له ان يتمتع بها فيحرص عليها ويدفع عنها كل عدوان . »

وتلك هي الدروس الاساسية التي تلقيهـــا سيرة عمر فاخوري في نضاله الوطني منذ الحرب العالميـة الاولى التي اشترك خلالها في الجمعيات العربية السرية الـــتي قاومت الاستبداد العثماني وطـالبت باستقلال العرب ، الى الحرب العالمية الثانية التي حطمت آخر الحواجز الوهمية التي كانت تفصل مفكراً كبيراً مثله عن جماهير شعبه الكادحــين المناضلين ، وانزلته الى ساحة الجهاد العملي الواعي في سبيل حرية وطنه وسعادة شعبه ، وفي سبيل مثـــل الانسانية

الرفيعة في الاخاء والمساواة والتقدم .

وانها لسيرة عظيمة حافلة بالعبر ، سيرة ذلك الرجل الحكيم الذي اغري زمناً طويلاً بتحريك المبادىء والعقائد والاراء ، التي تتمكن في نفس المرء وتسود فيا حوله ، بحكم التربية والتقليد والعدوى ، فكان يجد تحت اغلبها اشياء ليست حقيقة بتلك التسمية الكريمة . وقد اتيح له في هذه الرياضة غير الشائعة ، ان يعرف كثيراً وان يخبر كثيراً ، ولكنه تعذب من جراء تلك المعرفة وهذا الاختبار عذاب الرجل المرهف الحس حين يتكشف له المبدأ الذي احبه واعطاه نفسه عن سراب خادع .

النظرة الانسانية

وقد كان التفكير العلمي العميق ، والنظرة الواقعية الشاملة ، قوام عقيدته الوطنية ، ينظر في ضوئها الى المجتمع والى العالم ، فيرى ان بناء الامة موضوع شامل شمول الحياة التي لا تعرف التجزئة او القطيعة ، وان حياة الفرد في المجموع وحياة المجموع في العالم ، ان هما الا جزآن من جسم مركب تتمازج اجزاؤه كلها وتتفاعل ، فاذا فكرنا في لبنان ، او في الاقطار العربية المجاورة ، او في الشرق عموماً ، وجب علينا ان لا نفكر « لبنانياً » فحسب ، ولا « عربياً » فحسب ، ولا « شرقياً » فحسب ، بل ان نفكر ايضاً « دولياً او عالمياً او انسانياً » ، لان

انكماش الامم على نفسها ، وانعزال الاوطان في ذاتها ، امسى في هذا الزمن وهماً من الاوهام ، وهو في الغالب وهم مؤذ خطر الى ابعد حد . ان وطننا جزء من العالم ، فلن يسعه ان يخرج منه ، وان مصيره مرتبط بمصير العالم فما من سبيل الى فصله عنه ، وهو متأثر حتماً بما يعرض للدنيا من احداث ، وما يصطرع فيها من قوى ، وما يتجاذبها من تيارات ، فمن واجبنا نحو بلادنا اذن ، ومن مصلحة قضيتنا الوطنية وامانينا القومية ومثلنا الفكرية ، ان نعرف مناشيء تلك الاحداث ونتائجها والعوامل التي تسيرها ، لنعرف اي سبيل ننتهجه فيها ، وان نقف الى جانب قوى الخير والتقدم والحرية في صراعها مع قوى الشر والرجوع والعبودية ، وان نربط مصيرنا ، وهو مرتبط حتماً ، بالتيارات العالمية الشعبية التحريرية الجديدة التي تقاوم بقايا الرجعية والاستعمار لتطهر منها وجه الارض وتقيم مكانها شرعة الاخاء والتضامن والمساواة بين الافراد وبين الشعوب .

وكانت الصلابة التي تصمد للكفاح ولا تهادن فيه ، والتفاؤل بمستقبل الشعوب المضطهدة ، والثقة بانتصار الحرية وتقدم الانسان ، ابرز الصفات التي اتسمت بها تلك العقيدة الوطنية الراسخة . فقد ثبت في المواقف الحرجة التي يئس فيها الآخرون ، وارتفع صوته على اشده حين خفتت اكثر الاصوات .

ويوم بسطت النازية سيطرتها الغاشمة على اوروبا كلها ، وخيل انها لن تلبث حتى تدمغ بلعنتها الدنيـــا باسرها ، وانهارت آمال الناس بالحياة الحرة او كادت تنهار ، قـال عمر فاخوري : « ان حق الشعوب في الحرية والكرامة لا يمكن ان يبقى منتهكاً ، او سليباً ، او مسكوتاً عنه ، الا الى حين » .

وكان اذا ضرب له ضعفاء النفوس الامثال على ضرورة الرضى والقناع والقناعة والخنوع والتسليم امام « القوة التي لا قبل لنا بها » ، فقالوا له : « ان العـــين لا تقاوم المخرز » اجابهم بقوله : « اما التاريخ فقـد عرف حواراً يدور بين تلك العين وذلك المخرز ... ودائماً كان ينبت للعين ظفر وناب . »

الايمان بالتطور والتقدم

كان يؤمن بالتقدم ايماناً عظيماً ، ويقول ان التاريـخ ليس الا « حكاية التغير الطارىء على علاقة الانسان بالطبيعة كيف يكتشها ويسخرها ويستثمرها لمرافقه ومنافعه العاجلة والآجلة ، والتغير الطارىء على علاقـة البشر بعضهم ببعض افراداً بافراد ، وجماعات بجماعات ، كيف يوزعون بينهم التكاليف والجهود والخيرات . هو تغـــير دائم مستمر لا ينتهي (ولا تنتهي حكايته) يسير نحو الاعدل فالاعدل ، والاكمل فالاكمل .. » مؤكداً ان العالم يجتاز بازمـــة

الحرب العالمية الثانية ، وبمقدماتها ونتائجها ، خطوة من خطاه التاريخية العظمى ، موجهاً وجهه شطر الانسانية الفاضلة المثلى .

ومن البديهي ان لبنان والبلاد العربية كلها ، التي تؤلف مع العالم وحدة دقيقة الاحساس ، لن تظل في معزل عن تلك « الحركة العظمى التي تغمر العالم ، حركة القوى الشعبية المتصاعدة حتى تسد الافق » وعن الجو الجديد الذي يعيش فيه العالم وهو « الجو الذي اوجدته الحركة التحررية العامة – العاصفة بالافراد والشعوب – التي تستهدف خلق عالم جديد ، تقوم فيه العلاقات بين الافراد وبين الشعوب ، على اسس اقرب الى الانصاف والحق والخير » .

لم يكن عمر فاخوري من اولئك الوعاظ الذين يرددون الفاظاً طنانة لا تدل على شيء ، ويتوارون وراء ستار كثيف من المفهومات التي لا يفهمونها ، بل كان يمقت هذا النفر من الخلق الذين لا يواجهون المشاكل وجهاً لوجه دارسين مفكرين محللين ، فلا يستطيعون بالتالي ان يوجهوا امرءاً او جماعة نحو حل تلك المشاكل حلاً بصيراً صحيحاً لانهم هم انفسهم في ضلال مقيم .

ومن ثم كان اعظم ما يحاربه الغموض وارسال الجمل المجردة والتعابير المطلقة التي تعني كل شيء ولا تعني في الواقع شيئاً ، لانها غير مرتبطة بظروف معينة من الزمان والمكان ، وغير موصولة بما قبلها وما بعدها . وكان اعظم ما يتطلبه ويلح عليه تحديد الكلمات والجمل وتوضيح

ما تعنيه هنا وما تعنيه هناك ، ولا سيما ما يتعلق منها بالقضية الوطنية .

وفي هذا الضوء حمل عمر فاخوري على المفكرين الذين يتخبطون على تخوم النظريات الغيبيـــة ، والادباء الذين يتنادرون ويتظرفون فيما بينهم ، ورجال السياسة ، حتى « الوطنيين » منهم ، او الذين يسمون هكذا ، الذين لا يعرفون ، او يتجاهلون ، ان الوطن الذي ينتسبون هم اليه – وليس الوطن الخيالي الذي يتوهمون انه ينتسب هو اليهم – ان الوطن الحقيقي قد يتجاوز حدود ذواتهم » .

وفي هدى ذلك الضوء ايضاً ، نظر عمر الى مجتمعنا فرآه منقسماً طوائف شتى بعضها عدو لبعض ، فآلمه ذلك وأمضه وقال كلمته اللاذعة الشهيرة : « لقـــد اتى علينا زمن في لبنان ، وبين الطائفـة والاخرى ، او بين ابناء دين وابناء الدين الآخر ، كالحدود التي تفصل وطنـاً عن وطن : كدنا نحتاج الى جوازات سفر بين الطوائف والاديان . » وادرك ان اقامة نظام سيـــاسي ديموقراطي صحيح هي وحدها الكفيلة بان تمحو تلك الحدود الوهميـــة المخجلة ، والمؤذية ككثير من الاوهام . واصبحت الوحدة الوطنية التي تنعدم ، او على الاقل تنسجم ، فيها الفوارق الجنسية والطائفية بين العناصر المؤلفة لهـذا الشعب ، الهوس الذي يملك عليه لبه وشعوره ، اذ على صعيد الوطنية الصرف ، وفي ظل الانظمة الديموقراطية الصحيحـــة ، يزول ذلك العداء المصطنع ، او ذلك الحذر القائم بين طوائف الامة .

ولهذا نراه يـتبشر بالحدث اللبناني الذي اوجد « روحاً جـديداً هو الروح اللبناني » الذي كان ، كما يقول ، متنازعاً فاصطلح ، ومتوزعاً فاجتمع ، ومتغايراً فائتلف ، هذا الروح الذي تجلى « في ارادة اللبنانيين جميعاً ، على اختلاف طوائفهم واجناسهم ، ان يعيشوا معاً ، ابنـاء شعب واحد ، في وطن واحد سعيد » ويتمنى ان يتجلى هذا الروح كل ساعة ، ولكل مناسبة ، في جهود اللبنانيين المتوافرة ، المتضافرة ، المتناصرة ، لحفظ كيانهم الوطني ، واتقاء مرافقه ، وتعزيز كرامته . فنحن في حاجة الى ما يؤلف ويجمع : « ان ذلك الروح الجديد يؤلف ويجمع ، بل ليس الاه يؤلف ويجمع . فما اجدرنا اذاً بان نتعهده بالصون والرعاية ، وان نغذيه بالعقول والافئدة حتى ينمو ، ويبلغ اشده ، فلا تخشى عليه عوادي الزمان . ان لبنان حديث عهد بالاستقلال : هذا ما يقوله التاريخ القريب . وهو كذلك حديث عهد بالروح الجديد الذي خلق اللبنانيين امة ، وبلادهم وطناً : هذا ما تنطق به خبرة كل واحد منا ، في قراءة نفسه . فاي جهود نبذلها ، واي عزائم نضاعفها ، فلا توازي في كفة الميزان ذلك الروح الجديد الذي لا استقلال بدونه ، اذ لا وطن ولا امة بدونه » .

مفهوم الاستقلال

ذلك ان الوطن في عقيدة عمر فاخوري ، ليس مفهوماً غامضاً مجرداً ، وليس ايضاً ارضه الطيبة وسماءه الصافيـة

ومياهه العذبة وطبيعته الجميلة الساحرة . كلا ، ليس الوطن بهذا فحسب ، بل هو ايضاً ، وقبـــل كل شيء آخر ، شعبه الكادح ، الذي ينتج بيده وبفكره ، كل ما يؤلف الوطن ، وما يعتز به ، وما يحرص عليه ، من قيم مادية ومعنوية . وهذا مبعث قول عمر : « نريد وطنـاً ، لا طيف وطن . نريد وطناً من لحم ودم . نريد وطنـاً يحب ذاته ، ويحترمه الاخرون : يعرف كيف يحب ذاته ويحترمه الآخرون : يعرف كيف يحب ذاتـه ، وكيف يفرض احترامه على الاخرين » .

ومن هنا كان فهمه للاستقلال غير الفهم المبتذل لدى جماعة من المتاجرين به . وقد شغله هذا الموضوع كثيراً فعالجه غير مرة ، وخصه بالقسم الاكبر من كتابه « الحقيقة اللبنانية » . وفي هذا الكتاب تعريف رائع للاستقلال يقول فيه :

« ان الاستقلال ما كان ، ولا يصح ان يكون ، معنى قائماً بذاته في دنيا القيم النظرية ، منفصلاً عن البلد المستقل او — وهو الاقرب الى الصواب — عن ابنـاء البلد . فضلاً عن ان الاستقلال ما كان ، ولا يصح ان يكون ، لفظاً من هاتيك الالفاظ الطنانة التي تدل على كل شيء ما خلا الواقع والحقيقة . لا ، فالاستقلال مادة حية ، او هو جسم يستمد الحياة من لحـم الامة ودمها . ومن ثمة ايضاً يستمد القوة والبقـاء . ولست اعني بهـذا ان الشعب هو الذي يقدم في الازمات الحادة قرابينه ، ذوداً عن الاستقلال ، او يفتديه بافراد منه في ساعات الخطر ،

بقدر ما اعني ذلك المـــدد « الجمهوري » المستمر ، من النشاط والتضحية ، في الحالة الطبيعية ، في سياق الحياة العادية . »

وكان ذلك الوطني الكبير يرى ان الاستقلال ، كما انه «شيء يؤخذ» ، «شيء يحقق» عملياً . وكما ان له شروطاً معنوية لا غنى عنها ، كالشعور الوطني وروح التضحيـــة والارادة المشتركة وحسن التضامن القومي ، فان له ايضاً شروطاً مادية لا يمكن ان يحيا الاستقلال ، وان يضمن بقاؤه او تثبت دعائمه ، الا بها وفيها . «على أن الشروط المعنوية نفسها ، متوقفة على الشروط المادية ، مذعنة لها بالدرجة القصوى ، وليس يصح تماماً قول العكس . فالشعور الوطني وروح التضحية والارادة المشتركة وحسن التضامن القومي ، لا تتولد من ذاتها ، في الهواء ، تولداً فطرياً ، بل تعوزها الاوضاع الملائمة والمؤسسات اللازمة ... » ثم ينتهي الى القول : «الاستقلال مثل اعلى ، اجل . لكنه كسائر المثل العليا ، لا بد له من جناحين يطير بهما .. »

ما هو اذن الاستقلال الامثل ؟

يجيب عمر فاخوري على هذا السؤال بقوله : « نحن لا نريد استقلال لبنان وحسب . نحن نريد استقلال الشعب اللبناني ايضاً .. » ثم يفسر مـــا يعنيه بقوله : "استقلال الشعب اللبناني ، فيقول : «انما هو تحرره ، تحرر جماهيره ، تحررها بكل معنى الكلمة ، بمعناها العميق الشامل . »

ومن اجل هذا نجده يغتبط كل الغبطة اذ يسمع في الشارع رجلين من عامة الناس ، يتحاوران في شأن من

شؤونها اليومية ، وقد اختلفا على الزمن الذي وقع فيه امر من امورهما ، فيقول احدهما « لا ... كان ذلك بعد الاستقلال » ! لانه يرى في ذلك دليلاً على ان « الاستقلال اللبناني » قد احدث في الاذهان ، ولا سيما في اذهان العامة ، اثراً بليغاً ، حتى صاروا يؤرخون به شؤونهم اليومية . ويبتهج غاية الابتهاج اذ يرى الشعب اللبناني ايام ازماته الوطنية الاخيرة وهو يهتف لحريته ، ويتنادى لاستقلاله ، ويغضب لكرامته ، فيخيل اليه ان هذه الالفاظ الشريفة : الحرية والاستقلال والكرامة ، التي لم تكن غريبة على جونا النظري ، قد اصبح لها « صدى بل معنى جديد ، كأنما كانت في الهواء ، فداخلت وجدان الامة القومي ، بل كان الحرية والاستقلال والكرامة ، كانت تعني عند فريق شيئاً ، وعند فريق شيئاً آخر ، فاذا بهذه الالفاظ تسترد اليوم معانيها الصحيحة السليمة ، فتأتلف وتنسجم في فكر واحد ، وشعور واحد ، او بكلمة : في « كيان » واحد . ذلك هو المغزى الجديد الرائع لحركتنا الوطنية الاخيرة ، كأنما ولد الوطن اللبناني واستقلاله في وقت معاً . »

نحو مستقبل احسن

الا ان هذه البوادر الوطنية لا تكفي بذاتها اذا لم تتأصل جذورها وتؤتي ثمراتها المرجوة . ولهذا كان عمر

فاخوري مشغول الذهن في ايامه الاخيرة ، بهذه المرحلة التي تعقب الاستقلال ، هل تقوم على الاسس الصحيحة ، وهل تؤدي الى النتائج المنشودة ؟ فيتمنى ان يسير عهدنا الاستقلالي الديمقراطي نحـــو اكـثر فأكثر ، من الحرية والنور وان لا تبعد الشقة بين هذا العهد والشعب اللبناني او تنقطع الصلة بينهما ، و « ان يستمر هذا الشعب على رجائه في ان يكون هذا العهد له حقاً وصدقـاً ، وليس لافراد منه ولا لفئات . . »

ولهذا ايضا نراه يعلمنا « ان الاستقلال ليس وضعاً خارجيـاً دولياً وحسب ، بـل هو ايضاً وبالدرجة الاولى ، وضع داخلي شعبي . فان اوثق ضمانـــة لاستقلالنا هي ان يحس الشعب احساسـاً مباشراً حياً بأن هذا الوطن الذي «ينعم» اليوم بالاستقلال ، هو له «هو وطنه ، «ينعم» هو بخيراته» . بل ان الشعب ليس فقـط الضمانـــة الوثيقة للاستقلال والكرامة الوطنية ، وانما هو غايتها الاولى : «أليس هذا الاستقلال ، كما يقول ، وهذه الكرامة الوطنية الملازمة له ، واسطة لا واسطة سواها ، الى الغاية التي لا غاية وراءها ، وهي ان يحيا الشعب اللبناني حياة سعيدة ، في ارضه العزيزة ، متفيئاً ظلالها ، ناعماً بخيراتها ؟» ... «ومتى قلنا : الشعب اللبناني ، فلا بد من ان ندخل في الحساب ، جماهـــيره العاملة المنتجة ، في كل ميادين العمل والانتاج – نعني : السواد الاعظم الذين هم ، بفضل انظمتنا الحاضرة ، بعيوبها

الاصيلة وعيوب تطبيقها ، يحسون احساساً بليغاً بانهم بعيدون جد البعد ، من ان يحققوا في انفسهم ، معاني الاستقلال والكرامة .. فليس يجدي الوطني شيئاً ان تعلن حقوقه وحرياته ، اذا لم يعط في الوقت ذاته ، الوسائل الضرورية لممارسة تلك الحقوق والحريات : انها تبقى هكذا حبراً على الورق ، بل كتابة على الماء . ومن البديهي ان هذه العناصر الشعبية لم تكن ممثلة ، على صورة ما ، في جهاز الحكم اللبناني ، لا مباشرة ولا بالواسطة . وتأويل ذلك بسيط غاية في البساطة : ذلك ان جميع القوى تضافرت ، خلال الانتخابات الاخيرة ، على عزل تلك العناصر وتنحيتها ، ويجب القول انها وفقت كل التوفيق . لكن ترى ، هل يظل لبنان في معزل عن الحركة العظمى التي تغمر العالم ، حركة القوى الشعبية المتصاعدة ، حتى تسد الافق ؟ اكبر الظن ان هذا لم يبق في الامكان ، ولا سيما بعد ان اثبت الشعب اللبناني نضجه السياسي ، ووعيه الاجتماعي ، ورغبته الصادقة في ان توجد لمشاكله الحيوية ، الحلول الملائمة . ونحن احرياء ، منذ تحققت امنية الوطن اللبناني في الاستقلال والكرامة ، بأن ننتظر تحقيق اماني الشعب اللبناني في استقلال جماهيره العاملة المنتجة ، وفي « مراعاة » كرامتها الانسانية ، بتوفير الاسباب لتمتعها بالحقوق ، كل الحقوق ، وبالحريات كل الحريات » .

تلك هي وصية عمر فاخوري للجيل الطالع .

فهرست

٢١٦ / ١١ / ٥٤ / ٢٠٠٠



اعلام الحرية

سلسلة ادب ورواية وتاريخ

للاستاذ قدري قلعجي

ظهر منها :

١ - سعدزغلول (الطبعةالثانية) رائدالكفاح الوطني في الشرق العربي
٢ - ابراهيم لنكولن : محرر العبيد وموحد الولايات الاميركية
٣ - مدحت باشا (الطبعة الثانية) : ابو الدستور العثماني وخالع السلاطين
٤ - روبسبيير (الطبعة الثانية) : بطل الثورة الفرنسية
٥ - جمال الدين الافغاني (الطبعة الثانية) : حكيم الشرق
٦ - شوبان (الطبعة الثانية) : نشيد الحرية والوطنية
٧ - صلاح الدين الايوبي (الطبعة الثانية) : رجل غيّر وجه التاريخ
٨ - كرمويل : بطل الثورة الانكليزية
٩ - ابو ذرّ الغفاري (الطبعة الثانية) : اول ثائر في الاسلام
١٠ - ديموستين : بطل اثينا
١١ - غاندي (الطبعة الثانية) : ابو الهند
١٢ - محمد عبده : بطل الثورة الفكرية في الاسلام
١٣ - سون يات سن : بطل الثورة الصينية
١٤ - السابقون : الكواكبي ، الجزائري ، الزهراوي الريحاني ، الفاخوري .

الثمن : ١٥٠ ق . ل . او ما يعادلها مطابع الآداب - بيروت

